فقه التغيير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الإهداء

إلى الذين استهامتهم دعوة الحق وتيموا بها حتى فاضت قلوبهم وجدا وأشواقا ومحبة ..

استعذبوا بها كل ما أصابهم من صنوف الأذى والبلاء ومكاره العيش ..

إلى رواد التغيير والسائرين في مواكب الإصلاح على خطى الهادي ﷺ ..

إلى الداعين إلى الله على بصيرة والمجاهدين بإحسان .

إلى هؤلاء أهدي هذا العمل .

والله المستعان .

د. علاء عبد العزيز

فقـــه التغـيير

د. علاء عبد العزيز

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

عبد العزيز، علاء.

فقه التغيير / د. علاء عبد العزيز - ط١ - القاهرة: دار النشر للجامعات، ٢٠١١.

١٧٦ ص، ٢٠سم.

تدمك ٤ ٣٦٠ ٣١٦ ٩٧٧ ٩٧٨

١- الإسلام والإصلاح الاجتماعي

أ- العنوان ٢١٩,١

تاريخ الإصدار: ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

حقوق الطبع: محفوظة للناشر

رقم الإيداع: ٢٠١٠/١٠٠٤٤

الترقيم الدولي: ISBN: 978 – 977 – 316 – 360 – 4

الكود: ٢/٣٢٥



دار النشر للجامعات

ص.ب (١٣٠ محمد فريد) القاهرة ١١٥١٨

ت: ٢٦٣٤٧٩٧٦ - ٢٦٣٢١٧٥٣ ف: ٢٦٤٤٠٠٩٤

E-mail: darannshr@yahoo.com

مقدمة

عندما أطالع سير العلماء الربانيين الذين يجتبيهم الله في الفترات الحالكة من تاريخ هذه الأمة؛ ليأذن بانبعاثهم وراثا للنبوة بعد انقطاعها، مصلحين لما فسد، ومجددين لهذا الدين تجديدا لا ينبو عن حقائقه كما قال الهادي ﷺ في حديث البخاري: "يبعث الله على رأس كل مائة عام لهذا الدين من يجدده".

عندما أطالع سير هؤلاء يفرض السؤال نفسه على خاطري: ترى متى يجود الزمان مرة أخرى بواحد من هؤلاء ؟!

لكن السؤال يجر خلفه سؤالا آخر ألا وهو: وحتى يأذن الرب سبحانه بانبعاث المجدد القادم.. فماذا نصنع؟!

يعلم كل مسلم غيور على دينه.. قد وعى دروس الأمس واستوعب واقع اليوم أن الغد لن يأتي على ما نحب إن لم يتداركنا ربنا برحمته وعونه ومدده .. بإنارة البصائر وإعلاء الهمم ليكون للإسلام رجال...

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾[النور].

وليكون للإسلام رجال..

يـــستعذبون منايـــاهم كـــأنهم لا يخرجون من الـدنيا إذا قتلـوا

إن العالم اليوم يتبدى لناظره ساحة صراع بين حضارتين تستند كل منهما إلى خلفياتها العقدية وموروثاتها الثقافية.

وإن كل محاولة لفهم ما يدور– في خطوة نحو تغيير واقعنـا– بعيـدا عن فهم طبيعة الحضارتين هي ضرب من الجهالة والعبث .

إن الحاجة إلى فقه التغيير تبـدأ مـن نقطـة محـددة وهـي أن في ديـار المسلمين الآن واقعا ينحرف كثـيرا عـن الإسـلام الحـق ولهـم خـارج ديارهم عدو يتربص بهم الدوائر..

عدو ثبـت لكـل مـن وعـى حركـة التـاريخ واسـتوعب العـبر أن المسلمين لن يتمكنوا منه قبل أن يصححوا الأوضاع ويعيـدوا الأمـور إلى نصابها داخل بلادهم.

❋ وأحب أن أوضح أن المقصود بمصطلح التغيير في هـذا البحـث هو الإصلاح والتغيير إلى الأفـضل، والمـصطلح مـأخوذ مـن حـديث مسلم عن رسول الله ﷺ : «من رأى منكم منكرا فليغيره.. الحديث» .

لذلك فالتغيير يتم على مرحلتين:

١ – **التغيير قبل التمكين**: ويشمل الفـترة الممتـدة مـن الآن وحتـى تكون السمة الغالبة في ديار المسلمين هي العدل .

٢- التغيير بعد التمكين : وتبدأ بعد ظهور الدولة النواة والقدوة لغيرها لتبدأ مرحلة مواجهة العدو الخارجي مع استكمال التغيير في الداخل.



فلسفة الحضارة ومنهج التغيير

في كل حضارة قامت لابد من توافر عنصرين أساسيين:

١- منهج تقوم عليه (عقيدة أو رسالة).

٢- أفراد يحملون المنهج (يلزم فيهم الإيمان العميق بالمنهج مع همة عالية لنشره بين الناس).

بالنسبة للمنهج والأفراد هناك آلية التغيير أو فلسفة التغيير، وتشمل ثلاث ضرورات:

١- ضرورة فكرية: تتمثل في الفهم الصحيح لمقومات هذه الحضارة .

٢- ضرورة إدراك : تتمثل في التشخيص السليم لأدواء الأمة .

٣- ضرورة طرح: وتتمثل في المشروع الإصلاحي المقترح طرحه للخروج من المأزق وتغيير الواقع.

مثال : يشبه ذلك عمل الطبيب الذي يداوي الناس والذي لابد له من هذه الضرورات الثلاث :

١- ضرورة فكرية (علمية) : تتمثل في دراسته الطويلة للطب .

٢- ضرورة إدراك: تتمثل في استيعاب المرض وتشخيصه تشخيصا صحيحا.

٣- ضرورة طرح: وتتمثل في الرؤية أو التصور أو الخيار الذي يطرحه الطبيب لعلاج المريض (دواء ـ منظار ـ جراحة .. إلخ).

مفهوم الحضارة

- الحضارة هي نظام اجتماعي يفرز نشاطا إنسانيا في جميع المجالات.

- وكل حضارة لها ركيزة وثمرة.

١- أما الركيزة فهي الأساس والدعامة الذي تنهض عليه الحضارة لتؤتي ثمارها كما سوف يأتي تفصيله.

٢- وأما الثمرة فهي النتيجة الطبيعية لهذه الأسس وهي الإضافة التي تقدمها هذه الحضارة إلى الإنسانية من نهضة ومدنية في كل مجالات الحياة من زراعة ـ تصنيع ـ عمران ـ تسليح.

- الركيزة التي تقوم عليها الحضارة تمثل الجانب المعنوي من (عقائد - ثقافات - قيم - أخلاق - مناهج - نظم - تشريعات - سياسات - مبادئ - أفكار).

- ولو أردنا أن نختار واحدة من المفردات السابقة لتفي بالباقي فلن نجد أفضل من كلمة ثقافة .

مفهوم الثقافة :

- الثقافة هي منظومة القيم النظرية والعملية التي تحكم:

١ - مفاهيم الإنسان (أفكار ـ قيم ـ تقاليد ـ معتقدات) وهذه هي القيم الفطرية.

٢ - سلوكه العملي (أخلاق - أفعال - تصرفات) وهذه هي القيم العملية.

- مصادر الثقافة (العوامل التي تشكل ثقافات الشعوب والأفراد):

أ - موروثات: وتتمثل في (الدين - التقاليد).

ب - مؤثرات: وتتمثل في كل عوامل التأثير من كل ما يسمع - ويرى - ويحس..

- وهذا ما يسمونه بفنون الأمم وآدابها.

مثال: في البلاد الحارة يلبس الناس لباسا معينا فوق الرءوس.. كالقبعة الصينية أو العقال العربي، فهذا مؤثر بيئي (محسوس) وهو الطقس الحار ولد نمطا ثقافيا تمثل في لباس بعينه.

- إذا فمن الخطأ اعتبار الثقافة محصولا كميا من المعارف.. وإنما هو سلوكيات اجتماعية وأنماط أخلاقية.

- ولعل هذا هو السر في أن واحدا من رواد الإصلاح والتغيير مثل حسن البنا ﷺ عندما صاغ فهمه للإسلام في عشرين أصلا جاء أولها - والذي تناول مسألة شمولية الإسلام - على النحو التالي:

- الإسلام دين شامل يتناول كل مظاهر الحياة فهو دولة ووطن، أو حكومة وأمة، وخلق وقوة، أو رحمة وعدالة، وثقافة وقانون، أو علم وقضاء.. إلخ.

- فقد رتب الثقافة مع القانون والعلم مع القضاء .

- وكان الأجدر حسب فهم الوهلة الأولى أن يجعل العلم مع الثقافة، والقانون مع القضاء، والسر في ذلك الترتيب هو:

١ - ليست الثقافة محصولا كميا من المعارف كما أسلفنا، فلا مجال لوضعها مع العلم.

٢- القضاة في التصور الإسلامى والتاريخ الإسلامي هم نخبة من علماء الشريعة فلا غرو أن يزاوج بين العلم والقضاء .

٣- والأهم: أن القوانين التى تحكم أمة ما أو شعبا ما لابد أن تكون نابعة بالضرورة من تراثها ومعتقداتها وتقاليدها (يعنى إجمالا ثقافتها) فوضعها البنا مع القانون، وذلك على اعتبار أن ما هو عيب يؤاخذ عليه القانون في بلد ما قد لا يكون كذلك في بلد آخر وذلك لاختلاف الثقافات.

- ولو أردنا أن نسوق الأمثلة الواقعية على ذلك لوجدناها كثيرة:

١- أحد علماء الطب الكبار فى الولايات المتحدة، وهو مصري صعيدي مسيحي أ.د. إميل تناغو / أستاذ المسالك..

- فوجئ بأحد الشبان يتصل بابنته عبر الهاتف كثيرا ويسأل عنها، فكان ينهره..

- ثم فوجئ به يوما يطرق الباب يسأل عنها، فما كان منه إلا أن طرده.. كل هذا لأنه رجل متدين، أو على الأقل نشأ في بيئة أحد معالمها الثقافية أن مصادقة الفتى للفتاة خارج إطار الزواج حرام أو عيب أو لا تصح.

- فما كان من الفتى إلا أن شكاه إلى السلطات .

- وفوجئ الأستاذ الكبير والعالم الجليل بنفسه داخل القفص في داخل المحكمة؛ لأنه تدخل في الحرية الشخصية لابنته وأهان صديقها.

- فتدخلت شخصيات كبيرة لها وزنها وبذلت جهدا كبيرا في إقناع المحكمة بإعطاء الرجل فرصة أخرى؛ لأنه يجهل تقاليد وثقافة المجتمع الأمريكي ولأنه من مجتمع آخر له ثقافته المغايرة.. وكل هذا فقط لأن د. تناغو قيمة علمية كبيرة على الولايات المتحدة ألا تخسرها.

٢- والعيب قد يختلف من مجتمع لآخر يدين بنفس الدين:

- حدثنا أحد الإخوان المصريين الذين عملوا في اليمن أن أحد اليمنيين كان له صديق سوداني يتردد عليه في متجره، وكان جالسا معه

ذات ليلة، فأقبلت طفلة عمرها تسع سنوات هى ابنة اليمنى تطلب منه أشياء أرسلتها أمها في جلبها، فلما علم السوداني أنها فلانة ابنة صديقه والتى كان يحملها ويداعبها يوما ما.. لما علم ذلك هتف مندهشا: فلانة .. ما شاء الله.. لقد صرت عروسا.

ثم قبلها!!

هنا استل اليمنى خنجره الذي لا يفارقه وصمم على قتل صديقه؛ لأنه اعتدى على ابنته التي لا يراها طفلة كما رآها السوداني ولكنها بتعبيره "حرمة" .. ولم ينقذه من الموت بعد مشيئة الله سوى تدخل الناس مكتفين بطرد الرجل.

٣- حدثنا أحد الإخوان المصريين والذي عمل في إحدى مدن الأردن محفظا للقرآن في مسجد الحي ، أنه ذات يوم أجاد غلام (في حدود التاسعة أو العاشرة) حفظا وتلاوة، فحياه المحفظ وربت على كتفه وقبله.

بالطبع لم يكن الرجل يعرف أن لهذه الأمور في المجتمعات البدوية تأويلا سيئا.

- فقامت أزمة تدخل فيها بعض الأفاضل وبصعوبة استطاعوا إقناع والد الغلام وإخوته الكبار وأعمامه بأن هذا الأمر طبيعي عند الإخوة المصريين وأن الرجل لم يقصد سوءا.

- ثم مال أحدهم على المصري وحذره مغبة هذا الأمر ونبه عليه بعدم تكراره، فأقسم الرجل على سلامة طويته وسأله: فماذا أصنع بديلا عن تقبيله إن أردت أن أشجعه؟ قال الأردني: تضرب على فخذه أو إليته. قال المصري: لكن هذا عيب عندنا. قال: ولكنه ليس عيبا عندنا!!

٤- روت إحدى الطبيبات السوريات لنا قصة مؤداها أن شقيقها سافر إلى أمريكا لدراسة البورد الأمريكي في الطب.. فلما وصل إلى المستشفى الذي رتب عليه وجد هناك طبيبا مصريا مسلما، فاطمأنت نفسه وسر أيما سرور وأبلغ سعادة وظل ملازما له ليتعلم منه باعتباره عربيا مسلما وأقدم منه في المكان.

-وفي أول يوم له كان يعمل في العيادات الخارجية أبصر فتاة أمريكية حسناء.. جلست على طاولة الكشف وخلعت ملابسها وأشارت إلى عصعصها؛ ليجد الأخ السوري كتلة سوداء صلبة.. فحزن أن تكون فتاة في ريعان شبابها وتصاب بسرطان العظام في هذا الموضع الحساس.

- ولكنه لم يفعل لها شيئا حتى يراها أخوه المصري الذي تعامل مع الأمر بهدوء عجيب .. فقد طلب من الممرضة طلبا، فأتته بزجاجة وقطعة من القطن بللها بالمادة التي في الزجاجة ثم مسح بها هذه الكتلة الصلبة فإذا بها تزول فورا.

- فتعجب السوري أن يتقدم الطب عندهم إلى درجة أن ورما كهذا يزول بمادة أيا كانت...

- فلما صارح أخاه المصري بذلك.. ضحك طويلا وقال: أي ورم تقصد يا رجل؟!

أولا المادة هي سائل الكحول.

- والذي تسميه ورما هو غائط جاف !! نعم غائط جاف؛ لأنهم هنا لا يغسلون أدبارهم بالماء بعد الغائط مثلنا، بل يمسحونها بالورق..

- ولأن الفتاة أمريكية فهي دائما في عجلة من أمرها.. فتمسح بعد كل غائط دبرها بسرعة هكذا من الأمام إلى الخلف وهكذا فتتجمع بقايا الغائط في هذا المكان الضيق.. خاصة وأن الاستحمام عندهم قليل!

٥- منذ سنوات قرأت في الصحف إحصائية عجيبة عن نساء فرنسا اللاتي يعتبرن أكثر نساء العالم حرصا على جمالهن.

- الإحصائية كانت تدور حول معدل الاستحمام، فكان أكثر من نصفهن - حوالي (٦٠٪) - يستحممن كل ٦ أشهر، وأكثرهن نظافة - وهي نسبة بين ٥ - ١٠ ٪- يستحممن كل أسبوعين، وذلك بالطبع لأنهن يكتفين باستخدام العطور ومزيلات العرق.

- بينما المرأة المسلمة مثلا، حتى التي لا تصلي:

لابد أن تستحم عقب الجماع.

ولابد أن تستحم عقب الطهر من الحيض.

- كل هذه مؤثرات ثقافية ناتجة عن الدين.

٦- روت المذيعة المشهورة آمال فهمي أنها زارت باريس في ستينيات القرن الماضي. ولما سألت موظف الفندق الذي نزلت فيه : أين حمامات الفندق؟ أجابها ليس لدينا حمامات. ولكن بإمكانك الذهاب إلى أحد الحمامات العامة بالأجر ولا تنسي أن تأخذي ليفتك معك!!!

- إذا فالركيزة المعنوية (الثقافة) في أي حضارة هي الأساس الذي يقوم عليه بناء الحضارة والجذر الذي ينتهي إلى الثمار .

هذه القيم الثقافية للحضارة الإسلامية على تعددها يمكن أن يجمعها ثلاثة أنواع من القيم الحضارية في الإسلام تحديدا وهي:

١- التحرير الوجداني المطلق لله رب العالمين:

- إن الذين يدينون بالعبودية والتأليه للأغيار من طواطم وأوثان وبشر، يؤلهونهم ويعبدونهم من دون الله رب العالمين، قد تفرق ولاؤهم وتشتت وجدانهم.

- فافتقدوا الإحساس بالأمن والأمان والسكينة والاطمئنان الذي لا يعرفه ولا يحس به إلا من دان بالعبودية لله الواحد الحق.

- فتوحيد العبودية وتوحيد التأليه لله وحده يترتب عليه أن يتحرر وجدان المرء وكيانه من رق العبودية لغير مستحقيها لتذهب إلى مستحقها سبحانه وتعالى، فينطلق الوجدان والعقل من إسار العبودية لغير الله وما يترتب عليها من اضطراب وخوف وقلق فيبدع في كل مجالات الحياة وينتج ويخرج للإنسانية الروائع .

وهذا هو سر العلاقة العجيبة (في الحضارة الإسلامية) بين قيم وعقائد وثقافات الإسلام (وكلها فرع من توحيد الله عز وجل وتحرير الوجدان والولاء له من إسار العبودية لغيره) وبين نتاج ذلك كله من روائع هذه الحضارة المتمثل في ثمارها من: طب - رياضيات - فلك - كيمياء.. إلخ .

٢- المساواة الإنسانية الكاملة :

- بعض الحضارات، كالحضارة الغربية الحديثة، تتسم بمبدأ المساواة الكاملة بين البشر، بل إن هذا هو سر بقائها وصمودها حتى اليوم، رغم اجتماع الكثير من عوامل انحلالها وتحللها التي تؤذن بانهيارها .. ولكن ..

- هذه المساواة لا تتعدى حدودهم الجغرافية أو أسوار الوطن إلى غيره من الأوطان.

- **بعبارة أخرى**: هذه الحضارة قامت على عدة ركائز معنوية وثقافات، من أهمها تفوق الرجل الأبيض وجدارته بقيادة البشرية والتمتع بخيرات الكون، مهما قيل خلاف ذلك كما سوف يتضح في نهايات الباب الأول.

- وهذا فرق جوهري بين هذه الحضارات والحضارة الإسلامية التي يتساوى فيها البشر أيا كانت ألوانهم وأجناسهم، وحتى مع من يخالفونهم في الدين والعقيدة، وذلك لأن الإسلام من خلال النصوص المقدسة والسيرة العملية لصاحب الرسالة ﷺ كان صريحا في تحديد معيار التفاضل: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات:١٣] ، وقوله ﷺ : "كلكم لآدم وآدم من تراب، ولينتهين قوم يفتخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان". (رواه البيهقي والترمذي وأبو داود، وللشيخين مثله بألفاظ قريبة).

- وجماعته الأولى ﷺ التي حوت الفارسي والرومي والحبشي واليهودي.

وللإسلام فلسفة عجيبة وأدب عال لا يدانيه فيه أحد مع المخالفين في الدين والعقيدة ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾[الممتحنة] .

ويتضح ذلك من خلال النماذج العملية والتاريخية الواردة في فصل: ثقافة التنوع والتعددية واحترام الآخر في الإسلام .

٣- التكافل الاجتماعي الوثيق:

- في سورة الشورى ذكر الله تعالى بعض دعائم الدولة الفاضلة:

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٨ ﴾[الشورى].

أ- الذين استجابوا لربهم : دعامة إيمانية تتمثل في الإيمان بالدين .

ب- وأقاموا الصلاة : دعامة تربوية تتمثل في العبادة المترتبة على الإيمان.

ج- وأمرهم شورى بينهم: ركيزة سياسية تتمثل في الشورى وهي الضمان الأكبر للعدل الذي هو أساس الملك القوى .

د- ومما رزقناهم ينفقون: دعامة اجتماعية تتمثل في التكافل الاجتماعي.

وفي باب التكافل نصوص كثيرة نكتفى بالآية السابقة مع حديث رسول الله ﷺ : «ليس منا من بات شبعان وجاره جوعان» (رواه الحاكم).

- مع التراث العملى الرائع في التكافل في دولة الرسول ﷺ بالمدينة بين المهاجرين والأنصار.

نماذج تاريخية للتكافل:

١- كفالة مجتمع المدينة بمهاجريه وأنصاره رجلا مثل سلمان في أمر عتقه من سيده اليهودي الذي طلب ثمنا تعجيزيا مقابل عتقه وهو أن يزرع له ثلاثمائة نخلة.

من جانبه قبل النبي ﷺ التحدي ولم يبذل أدنى جهد في استغلال سلطاته ونفوذه كرئيس للدولة بمسلميها ويهودها في الضغط على اليهودي ... بل دعا الجميع إلى التعاون، وكان يأخذ الفسائل بعد جلبها بيديه الشريفتين فيدعو عليها ويباركها ويضعها في مكانها.. حتى مرت التجربة بسلام ونال الرجل حريته.

٢- ومثل ربيعة بن كعب الذي اكتتب المسلمون جميعا ليجمعوا له الصداق حتى يتزوج.

٣- ومثل هذا الجندي الذي سقط قعبه في البحر بينما المسلمون يعبرونه لملاقاة الفرس، فصاح قعبي قعبي، فتوقف الجيش كله للبحث عن قعب أخيهم، والفرس على الجانب الآخر يرقبون المشهد العجيب، حتى قال أحدهم فرقا: إذا كان هذا حالهم في قعب أحد يفتقده، فكيف بهم لو نال أحدهم منا أذى؟!

* * *

حضارة أم نهضة؟

يفرق علماء الاجتماع بين مفهوم الحضارة الكاملة ببعديها المعنوي والمدني وبين المدنية (في جانب من جوانب الحياة أو كلها) التي تفتقر إلى البعد المعنوي أو الأخلاقي.

من أمثلة التاريخ (التي توضح الفرق بين الحضارة والنهضة):

١- المغول الذين اجتاحت جحافلهم نصف العالم خلال عقود قليلة من الزمان سرعان ما انهارت ليشهد العالم حالة فريدة في التاريخ من تحول المنتصر وهم التتار إلى دين المهزوم وهم المسلمون، وذلك لأن حالة التتار ليست حضارة بأي حال ولا تعدو أن تكون نهضة عسكرية (تفوقا عسكريا) تفتقر إلى أي رصيد من قيم وعقائد.. صادف ضعفا شديدا عند الآخر.

الحضارة الغربية (ونحن نسميها حضارة مجازا) وإلا فهي نهضة وعمرها منذ قامت إلى حين انهيارها المتوقع لا يزيد عن ثلاثة أو أربعة قرون، وهذا قليل جدا بالنسبة لأعمار الحضارات.

ولكن كيف نقيم الحضارات؟

أسس تقييم الحضارات كما يراها د. مصطفى السباعي:

كلما كانت الحضارة:

١- عالمية في رسالتها.

٢- إنسانية في نزعتها.

٣- أخلاقية في اتجاهاتها.

٤- واقعية في مبادئها.

.. كلما كانت ...

١- أبقى على الزمن.

٢- وأخلد في التاريخ.

٣- وأجدر بالتكريم.

- والذي يراه كل منصف أن الحضارة الإسلامية قد حازت هذه الشروط والموازين جميعا.

فهي التي كانت ولا زالت تقدم نشر رسالتها الفكرية والاعتقادية على كل المطالب، وهي التي تغلب النواحي الأخلاقية - كالوفاء بالعهود ولو مع المشركين، وإكرام الأسير وعدم المثلة بأجساد الموتى- على كل اعتبار، وقصتا فتح سمرقند، وحصن بابليون - على سبيل المثال - توضحان ذلك .

قصة فتح سمرقند:

- مدينة سمرقند وهي الآن تتبع جمهورية أوزبكستان .

- كانت مدينة حصينة فتحها المسلمون بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي زمن عمر بن عبد العزيز بعد مقاومة شديدة وحصار طويل.

- ولكنهم بعد دخولها أمروا بالعودة مرة أخرى خارج الأسوار .. لماذا؟

لقد اكتشف أهل المدينة بعد سقوطها أن المسلمين لم يفعلوا معهم شيئا كان يجب أن يفعلوه حسب دينهم، ألا وهو عرض الإسلام عليهم ودعوتهم إليه.

فبعثوا بشكاة إلى عمر بن عبد العزيز الذي أوكل عنه (لبعد المسافة بين دمشق وسمرقند) قاضي أقرب البلاد المفتوحة.

- فاستمع القاضى إلى أهل سمرقند واستمع إلى قتيبة ورجاله الذين كانوا يستندون إلى رأي فقهي له وزنه ولا يستهان به، وهو جواز فتح البلاد دون عرض الإسلام على أهلها ودعوتهم إليه إذا كان أمر الإسلام قد انتشر بحيث لم يعد مجهولا لأحد.

- لكن القاضي الذي يحكم باسم الخليفة حكم لأهل سمرقند .

- فصدرت الأوامر أن تعود الجيوش أدراجها خارج الأسوار بعد كل العناء والوقت الذي بذل.

- لماذا؟ لأنها حضارة أخلاقية في اتجاهاتها.. حضارة قامت على رسالة هي أغلى وأعز من فتح البلاد ومن الدنيا كلها.

- وكانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة في التاريخ .. التي عادت فيها جيوش منتصرة بمحض إرادتها إلى خلف خطوط الهدنة.

- يذكرني ذلك بمقولة لأحد قادة الغرب العسكريين حيث يقول:

- إنك لا تستطيع أن تصل على موائد المفاوضات إلى أبعد مما وصلت إليه مدافعك في ميادين القتال .

- وصدق .. ولكن أهل سمرقند استطاعوا.. وذلك لأنهم كانوا يحاربون عدوا يختلف عن الآخرين .

قصة فتح حصن بابليون:

- وهو حصن بناه الرومان مكان ما يسمى الآن بمصر القديمة بمدينة القاهرة.

- كان الحصن كبيرا ومنيعا فاحتاج من عمرو بن العاص وجيشه حصارا طويلا مرهقا.

- وقد أرسل الخليفة عمر بن الخطاب إلى عمرو رسالة طويلة يوبخه فيها لتأخر الفتح، ويرى فيها أن ذلك التأخير لابد وأن يكون سببه الذنوب، ويدعوهم إلى التوبة ونبذ المعاصي ليستحقوا نصر الله،

وبعد طول حصار (ستة أشهر في بعض الروايات) اتفق عمرو ورجاله مع زعماء الأقباط على التالي:

- أن ينادي على أهل الحصن فردا فردا فيخير بين الإسلام أو البقاء على دين آبائه.

- وكان ذلك بالفعل .. يقول راوي القصة: «فصرنا كلما نودي على رجل منهم فآثر الإسلام كبرنا وهللنا (مع أنه بإسلامه لن يدفع الجزية) فإذا آثر البقاء على دين قومه صرنا كأن واحدا قد انتزع منا» (مع أنه لم يكن منا) ولكن المسلمين الأوائل كانوا يودون لو آمن الناس جميعا بدين الله.

- ربما تشاركها حضارات أخرى في بعض هذه الشروط التي حازتها مثل الحضارة الغربية التي تسعى نحو العالمية ولكن ..

٢- نشر مبادئ وقيم الحضارة الغربية بما فيها الدين المسيحي لم يكن بدافع القناعة والإيمان بالرسالة بقدر ما كان لتأمين وبسط نفوذها الاستعماري وضمان ولاء شعوب هذه المستعمرات وعدم مقاومتهم.

- روت كتب التاريخ كيف أن الملك الإنجليزي هنري الثامن قرر بسبب رغبته في تطليق امرأته والزواج بأخرى اعتناق المذهب البروتستانتي (والذي يعده الكاثوليك دينا آخر تماما) وترك دينه الأصلي هو وشعبه وهو الكاثوليكية، وكان ذلك إيذانا بقرن كامل من

الحروب الدينية في أوروبا .. قرن مليء بالمآسي والفظائع، وهو القرن السادس عشر.

لم تكن هذه الحضارات إنسانية النزعة أو أخلاقية التوجهات ولا زالت ذاكرة التاريخ تحفظ في هذا الشأن ما يندى له الجبين قديما وحديثا، حتى لا نظن أن ذلك كان تاريخا وانقضى.

أخلاقيات الحضارة الغربية :

- هل كانت الحضارة الغربية أخلاقية في اتجاهاتها؟

- هل كانت إنسانية في نزعتها؟

- هذا ما سوف نعرفه باستعراض نماذج تاريخية ومعاصرة توضح مدى أخلاقية الحضارة الغربية:

١ - أسبانيا والبرتغال أول دولتين استعماريتين.. يمتلئ سجلهما بالفظائع والمآسي حيثما حلوا .. - في الأمريكيتين- في الشرق الأقصى (ماليزيا وإندونيسيا)، وذلك مثل:

أ - إبادة السكان الأصليين .. في الأمريكيتين .

ب- هدم مساجدهم ومنازلهم - في الشرق الأقصى- ومنعهم من إظهار عبادتهم.

ج - يروى عن أحد قادة الأسبان في العالم الجديد، ويدعى فرانشيكو بزاريو القصة التالية:

فقد علم صاحبنا بتوافر الذهب في أيدي الهنود الحمر فقام باختطاف ملك الإنكا (من قبائلهم) وطالب شعبه بفدية قدرها ٥٠٠٠ كجم ذهب (٥ أطنان).

فدفعوها وتسلمها .. ثم قتل الرجل.

٢- يجمع المؤرخون في أوروبا وأمريكا على أن عدد من قتلوا من السكان الأصليين في الأمريكيتين يتجاوز المائة مليون، وذلك منذ أن وطئت أقدام كريستوفر كولومبس شواطئ العالم الجديد.

- لم يكن هذا الرقم الضخم دائما وليد المعارك وساحات القتال فحسب، حيث يواجه المدفع بالسهام والنبال، بل كان الغزاة يلجأون في كثير من الأحيان إلى حيل هي أبعد شيء عن الرحمة والشرف والرجولة والإنسانية .

- فقد كانوا يتظاهرون بطلب الصلح والسلام . وكدليل مصداقية يقدمون لهم صناديق الأطعمة والأغطية التى يتضح فيها بعد أنها ملوثة بجراثيم قاتلة كالجدري والجمرة والطاعون فتحصد الأرواح، ومنهم الأطفال الأبرياء والنساء والشيوخ.

- فيقومون بإحراق القرى والجثث حتى لا تنتقل إليهم العدوى.

٣- ذات يوم من أيام الاحتلال الهولندي لأندونسيا والذي امتد ثلاثة قرون، وتحديدا في القرن السابع عشر، خرج حوالي ربع مليون

رجل يطالبون بالحرية لا أكثر .. كانوا لا يحملون سلاحا ولا يفعلون أكثر من المطالبة بحقهم في الحياة الكريمة.. فحصدوهم في ساعات بالمدافع .

٤- قتل البلجيكيون إبان احتلالهم للكونغو أكثر من عشرة ملايين من سكان البلاد الأصليين أواخر القرن ١٩ وأوائل القرن ٢٠؛ لاعتقادهم أنهم في رتبة البهائم وأنهم أحق منهم بخيرات البلاد .

٥- وحتى بعد تحرر دول إفريقيا عسكريا لا زالوا ينهبون خيراتها من ماس وغيره ويتخذون أراضيها مدافن للنفايات النووية...ثم لا يمنعهم ذلك من الحديث عن الحرية والإخاء والمساواة وحقوق الإنسان .. وقبول الآخر.

٦- كيف كان البيض (وأصولهم إنجليزية وهولندية) في جنوب إفريقيا - قبل أن يحصل سكان البلاد الأصليون مؤخرا على حقوقهم- يعاملون هؤلاء البؤساء:

أ - كانت لهم أحياؤهم الخاصة ويمنعون من الاختلاط بالبيض إلا كخدم أو عبيد.

ب- كانت لهم مدارسهم الخاصة.

ج - كانت لهم كنائسهم الخاصة (حتى دور العبادة يمنعون عنها إخوانهم في المسيحية) .

د - كانوا يمنعون من ركوب الحافلات.

هـ- كانت لهم مراحيضهم الخاصة بهم (مرحاض لكل ٢٠٠ مواطن) يصطفون أمامها في طوابير طويلة .

و- وكانوا يضربون ضرب البهائم إذا تقدم أحدهم على رجل أبيض في الطريق.

٧- اصطياد العبيد من مواطنهم في غرب إفريقيا وشحنهم إلى العالم الجديد عبر الأطلنطي في ظروف يندى لها جبين التاريخ حيث ينفق منهم الكثير فيلقون في المحيط ويؤخذ الباقون ليباعوا عبيدا يعملون في كل مجالات الحياة القاسية ومن يفكر منهم في الهرب تقطع يده ورجله.

- ولعل كتاب «جذور» للأمريكي أليكس هيلي، والذي أنتج فيلما سينمائيا يصلح مرجعا للمستزيد.

- وقد أثرت من هذه التجارة أكثر دول أوروبا وخاصة أسبانيا وهولندا وإنجلترا.

٨- ذكر الأديب د. علاء الأسواني أنه التقى في أوروبا أستاذة جامعية إفريقية، وأنها كباحثة ذكرت له حقائق عجيبة عن معاملة الأوروبيين للسود، منها أنهم بعد خطفهم كان بعضهم ـ بدلا من

بيعهم عبيدا في العالم الجديد يوضعون في أقفاص للفرجة مقابل أجر– ويطاف بهم لهذا الغرض عبر أوروبا .

– ويعلق د. علاء على ذلك بقوله: إن معنى ذلك أنهم كانوا يرونهم كالحيوانات!!

وصدق الرجل!!

٩– قتل ٣ ملايين فيتنامي ومثلهم في كوريا خلال عقد كامل من الاحتلال الأمريكي (من منتصف الستينيات إلى منتصف السبعينيات) بحجة تخليص البلاد من نير الشيوعية .

❋ وللطرافة هي نفس الحجة التي دخلوا بها العراق ودمروها، ألا وهي تخليص العباد من ظلم صدام.

❋ وهى نفس الحجة التى علل بها نابليون غزو مصر، ألا وهي تخليص البلاد من ظلم المماليك !!

❋ وهى نفس الحجة التى علل بها الإنجليز غزوهم لكثير من بلاد الشرق العربي، ألا وهي تخليص الناس من ظلم العثمانيين... وما أعجب منطق هؤلاء!!

١٠– قتل مئات الآلاف في هيروشيما ونجازاكى بالقنبلة الذرية الأمريكية ردا على ما فعله اليابانيون في بيرل هاربر، وما خلفه ذلك من مآس.

١١- فظائع الإنجليز في فلسطين قبل إلغاء الانتداب والتي ضمنها الأستاذ البنا كتاب «النار والدمار في فلسطين» ، والذي بذل الإنجليز المستحيل لإخفائه .

١٢- حروب البلقان - التطهير العرقي والإبادة في (البوسنة - وكوسوفو)- في عقد التسعينيات من القرن الماضي وكلها منصبة حول المدنيين من النساء والأطفال والشيوخ.

- والآن بعد توقف المدافع في البلقان.. لا زالت المنظمات الإغاثية الإسلامية - مع قلتها في العدد والإمكانات- لازالت تعاني الأمرين من القوات الدولية.

- حدثني أحد شهود عيان أن الساحة تفتح على مصراعيها للمنظمات المسيحية ويمنع أهل البلاد وأغلبهم من المسلمين من إظهار هويتهم الدينية، وتمنع منظمات الإغاثة الإسلامية من عملها .

١٣- حرب الأفيون مطالع القرن ١٩ في الصين، وخلاصتها أن إمبراطور الصين لاحظ خلال جولاته في البلاد تكاسل الناس الشديد عن العمل، فأخبر أن التجار الإنجليز يجلبون عشبة من العالم الجديد (الأفيون) يتعاطاها الناس طمعا في الشعور بالراحة والسعادة فيكون هذا حالهم.

- بالطبع أصدر الرجل قرارا بمنع هذه السلعة المدمرة، فماذا فعل الإنجليز؟ لقد وجهوا للإمبراطور إنذارا خيروه فيه بين ثلاثة خيارات:

أ- إلغاء القرار .

ب- تعويض التجار بمبالغ طائلة.

ج- ضرب بكين والقصر الإمبراطوري بالمدافع ..

وقد كان .. فضربت بكين بالمدافع حتى أن الصينيين عندما رمموا القصر الإمبراطوري أبقوا على بعض جوانبه دون ترميم لتبقى شاهدا على مر التاريخ على مدنية الإنجليز وتحضرهم ومفهوم العدل عندهم.

١٤- فظائع فرنسا في مستعمراتها وخاصة المغرب العربي ليست أقل .. **فعلى سبيل المثال:**

أ- في عام ١٩٤٥ قتل أكثر من ٤٠.٠٠٠ خلال ساعات – ذات يوم – في إحدى المناطق التى كانوا يظنون أنها قد أوت بعض المجاهدين الذين لم يفعلوا أكثر مما فعل هؤلاء الفرنسيون مع الاحتلال الألماني لبلادهم .

ب- طرد أحد المبعوثين المصريين الذين ابتعثوا لدراسة القانون في باريس وهو د.أحمد كمال أبو المجد أوائل الخمسينيات لمجرد أنه ألقى كلمة حماسية في المسجد.. يعنى لا في الشارع ولا على صفحات الجرائد، يناصر فيها الجزائريين الذي يتعرضون للإبادة .

ج- فرنسا كانت ولا زالت تعتبر هذه البلاد حقا تاريخيا لها، ولا زالت تؤلب البربر والقبائل وتصر عبر صحافتها ومفكريها على نشر التنصير لتعود الجزائر مسيحية.

١٥- منع بث إرسال قناة المنار التابعة لحزب الله لمجرد الاختلاف في الرؤى والأفكار.

- وهكذا ترى عاصمة النور والحرية ثقافة التنوع وقبول الآخر ومن يخالفها الرأي.

١٦- عندما وصل نابليون بجيوشه إلى حيفا طلب من حاميتها تسليم أنفسهم وسلاحهم مقابل الأمان، فصدقوه فحصدوهم جميعا.. أربعة آلاف نفس بشرية. وهكذا يكون الشرف وهكذا تكون أخلاقيات الحضارة الغربية.

١٧- إيطاليا ... في غزوها لليبيا:

أ- قتل المدنيين بمدافع الطائرات (لأول مرة في التاريخ استخدمت الطائرات في أغراض عسكرية كانت هي هذه).

ب- قتل الأسرى رميا بالرصاص من الخلف، بالمخالفة لكل الشرائع والقوانين، ومنها اتفاقية جنيف للأسرى التي صاغتها مدنيتهم.

ج- الإجهاز على الجرحى في ميادين المعارك .

١٨- وأمريكا.. زعيمة الحضارة الغربية:

أ- ذكر أحد كوادر المخابرات المركزية «أمريكي» أنهم كانوا يخلطون اللبن المصدر لبعض دول العالم الثالث الصديقة لهم كمعونة بالأسمنت الأبيض؛ لاتهام حكام هذه البلاد- إذا جد جديد في عالم المصالح والتوازنات أو فكر هؤلاء أن يتمردوا عليهم - بأنهم يقتلون شعوبهم.

ب- الإجهاز على أسرى العراق (المقاومين لهم) وانتهاك حرماتهم وقطع أعضائهم أحياء لبيعها لتجار زراعة الأعضاء.

ج- قتل وتشريد المدنيين في العراق (أكثر من مليونين)، روى شهود العيان أن منهم أطفالا ونساء كانوا يرفعون لافتات تبين أنهم أطفال ونساء، وأن كل ما يطلبونه هو المرور الآمن للخروج من مناطق القصف .

د- أحداث قلعة جانجي بأفغانستان وسجن أبي غريب بالعراق ومعتقل جوانتانامو بكوبا التابع لأمريكا.. من تعذيب الأسرى – وانتهاك حرماتهم ـ وتمزيق مصاحفهم.

– وقد أثبتت التحقيقات أن سلوك الجنود لم يكن فرديا بل كان بناء على أوامر .. فماذا حدث لهم؟ لا شيء.

هـ- قانون الأدلة السرية الذي يراه الشرفاء سبة في جبين أمريكا حيث يدان المتهم (المسلم غالبا) بتهم لا يطلع عليها لا هو ولا محاميه.

و- تلفيق التهم للمسلمين ... مثل هذا الأستاذ الجامعي الذي برئ من تهم مساعدة التنظيمات الإرهابية فطلب منه أن يشهد زورا على متهمين آخرين فلما رفض وجهت له تهمة ازدراء العدالة التي تصل عقوبتها إلى السجن ٢٠ عاما.

- وهناك أمثلة كثيرة من هذا النوع.

ز- وقد حوى كتاب (ماذا يريد العم سام؟) الصادر مؤخرا لأستاذ جامعي مرموق له مكانته في أمريكا والعالم هو الأمريكي اليهودي نعوم تشوسكي كل الفضائح التاريخية التي مارستها أمريكا ضد خصومها وطريقتها في تصفيتهم والتعامل معهم بقسوة وبشاعة.

١٩- الصمت التام حتى في خطاب أوباما بجامعة القاهرة صيف ٢٠٠٩ عن أحداث ضرب غزة ٢٠٠٨ حيث ١٥٠٠ قتيل + ٥٠٠٠ جريح بأسلحة محرمة دوليا .

مع ذلك يملأون الدنيا ضجيجا إذا اشتموا رائحة تهريب سلاح أو طعام لهؤلاء المساكين.

- يفعلون ذلك بمساعدة المنظمات الدولية وأنظمة عربية متواطئة.

- وحين يقررون صرف المساعدات فهم يقصدون مليونيرات السلطة في رام الله؛ لأنهم لا يعترفون بمن يقاوم بغير المفاوضات.

٢٠- النظام السوداني.. الذي تعامل مع التدخلات السافرة في بلاده، ومنها حركات التبشير، كأي نظام يحترم نفسه، أرادوا تأديبه تمهيدا لخلعه كما خلعوا عيدي أمين في أوغندا لنفس السبب، فأدانته محكمة العدل الدولية بتهمة الإبادة الجماعية في دارفور.. وكأن المطلوب من حاكم دولة مثله أن يقف مكتوف اليدين أمام حركات الانفصال المسلحة المدفوعة بهم ومنهم، والتي راحت تعيث في الأرض فسادا .

٢١- علق أوباما على الفتاة الإيرانية التي ماتت في المظاهرات التي اندلعت بعد ظهور نتائج الانتخابات الرئاسية هناك (مع أن أحدا بعينه لم يتهم حتى الآن). وقد ثبت أنهم قدموا لهم الدعم الإعلامي بل والمادي بقرار الكونجرس.. علق على ذلك قائلا: إن القلب ليتمزق لأجل هذه الفتاة... مع أن أحدا لم يسمع له صوتا على آلاف القتلى والجرحى بأسلحة محرمة في غزة.

- ومع أن أحدا لم يسمع له صوتا على السيدة المصرية التي قتلت ببشاعة منقطعة النظير أمام أهلها في دريسدن بألمانيا... وفي قلب قاعة المحكمة .

٢٢- هؤلاء هم أحفاد الصليبين الذين دخلوا الشام والقدس:

أ- فأراقوا دماء أكثر من ٧٠.٠٠٠ في القدس وحدها، ومثلهم في أنطاكية وغيرها، حتى سالت بدمائهم الطرقات.

ب- غلوا المسلمين في القدور وشووهم على النار، كل هذا بشهادة مؤرخيهم.

٢٣- في خطابه أمام الكونجرس بتاريخ ٢٩/ ١/ ٢٠٠٢م، الذي لم تنشره في مصر سوى مجلة الجيل، قال جورج بوش الابن في نهاية حديثه مشيرا إلى العالم الإسلامي:

«سنجيعهم حتى يركعوا ولن نرحم بكاءهم ولا بكاء أطفالهم، وسنمنع عنهم كل سبل التنمية» .

- حقا لقد بكى أطفال العراق المحاصرين أكثر من عشر سنوات لأجل الحليب والدواء والمحاقن، حتى بلغ عدد الضحايا حسب شهادة جورج جالاوي أكثر من ٢٠٠٠ طفل / أسبوع .. كل هذا فلم يرحم بكاءهم .. كما وعد.

٢٤- عدم احترام نتائج الديمقراطية المعبرة عن إرادة الشعوب مثل انتخابات فلسطين ٢٠٠٥؛ لأنها جاءت بمن لا يحبون .. فكان السعي إلى تخويفهم ثم ضربهم ٢٠٠٨، بل وحبس واعتقال كل من يمد لهم يد العون.

٢٥- وكذا الحال في الجزائر أوائل التسعينيات ..

* * *

جذور ومآلات (مصائر) الحضارة الغربية

جذور الحضارة الغربية والعوامل التي أثرت في مفهومها للتغيير :

- هناك عوامل أثرت في رؤية الحضارة الغربية وتصوراتها لعملية التغيير وفلسفتها بمعنى أنها عوامل رسمت ملامح وفلسفة التغيير في العقل الجمعي الغربي قديما وحديثا.

- عوامل ساهمت في رسم فلسفة ومفهوم التغيير في العقل الغربي، مع ملاحظة أن أمريكا جزء من هذه الحضارة الغربية وإن اختلفت عن أوروبا في التاريخ والجغرافيا قليلا أو كثيرا، إلا أن الذين عمروها وهاجروا إليها هم الأوروبيون في غالبهم ومن ثم فقد اصطحبوا معهم هذه الثقافات.

هذه العوامل هي مكونات وروافد ثقافية من التاريخ والجغرافيا:

١- جغرافيا : وتتمثل في العوامل الجغرافية التى تحكم أغلب القارة الأوروبية من (ثلوج – عواصف – فيضانات- براكين)، وكثير من صور قسوة الطبيعة ولدت ثقافة الصراع والعنف ولا شك .

٢- تاريخ:

أ- قديما...

- همجية الفايكنج غزاة الشمال الأوروبي، وهم قبائل تتميز بالعنف

والهمجية وغاراتهم المستمرة على أطراف الإمبراطورية الرومانية.

مثال: حرق الفايكنج لندن وباريس عدة مرات ما بين القرنين (١٠-١١) الميلاديين .. وكان لمثل هذه الأمور دورها ولا شك في ميلاد ثقافة الصراع والعنف .

- الحياة البدائية.. حياة الأكواخ والبراري والغابات مع الخرافات والأساطير.. والتي ساهمت في تشكيل العقلية الغربية قبل وبعد دخولها في المسيحية.. نعم فهذه الشعوب لم تتخل عن فكرة الأساطير، حتى بعد تحولها من شعوب وثنية إلى دين سماوي كالمسيحية .

- **مثال من ثقافة الخرافات والأساطير قبل المسيحية:** فكرة شهر العسل حين كان الفايكنج يعتبرون أن تناول مشروب معين يدخل العسل في تركيبه يقوي الزوجين ويمنحهما الحيوية والدفء والنشاط.

- ومن بعد المسيحية التشاؤم من الرقم ١٣ حتى يومنا هذا، حتى إن الفنادق تلغي رقم ١٣ من الأدوار والغرف وترقم هكذا: ١٢- ١٢ مكرر- ١٤، كذا في أمريكا وأوروبا.

- ومصدر هذا الاعتقاد أن المسيح ليلة صلب (في اعتقادهم) والتقى في عشائه الأخير مع تلاميذه الاثنى عشر (فكانوا بذلك ١٣) ومن ثم ساد الاعتقاد بأنه إذا اجتمع ثلاثة عشر رجلا فإن أحدهم يموت!!

- ومؤخرا ذكرت الصحف أن حملة أطلقت في إحدى الولايات الأمريكية للقضاء على رمز الشؤم وهو البوم .. وبالفعل تم القضاء على كل البوم في الولاية ...الأمر الذي ترتب عليه الانتشار المخيف للفئران.

- فلكم كانت حكمة الإسلام بالغة في النهي عن التشاؤم، مع التشديد على ذلك حين يترتب عليه إلغاء عمل أو مشروع أقدم عليه صاحبه. قال ﷺ: «ليس منا من تكهن أو استقسم أو رجع من سفر تطيرا» (البزار والطبراني).

ب- **حديثا**.. ظهرت عدة نظريات في جوانب الحياة المختلفة وانتشرت في أوروبا في القرن ١٩ .. كلها تكرس ثقافة ومفهوم الصراع وتعتمده وسيلة للتغيير.

- والملاحظ عليها (النظريات) أن أصحابها والقائلين بها كانوا يهودا، الأمر الذي يعكس دور الفكر اليهودي في ثقافة الصراع وكرافد من روافده، خاصة في الجانب التاريخي الحديث.

- **وأخيرا**.. فإن هؤلاء كان القاسم المشترك فيهم عدا يهوديتهم أنهم لم يعرف عنهم قبل مناداتهم بهذه النظريات أي بزوغ علمي، بل إن القاسم المشترك في سيرتهم ونشأتهم جميعا كان هو الفشل.

هذه النظريات هي:

١- صراع الكائنات سعيا نحو التطور: ت. داروين، وهو إنجليزي يهودي.

٢- صراع المصالح الاقتصادية مع القيم والأخلاق بحيث يتحرر الاقتصاد كعلم مستقل عن ضوابط الأخلاق: آدم سميث، وهو إنجليزي يهودي.

٣- صراع الغرائز مع القيم الدينية : س.فرويد، وهو نمساوي يهودي.

٤- الصراع بين البروليتاريا من جهة مع الإقطاع والرأسمالية من جهة أخرى: كارل ماركس، وهو ألماني يهودي.

٥- (مصير الحضارة الغربية) كما يراه العلماء والمفكرون الغربيون .

- تروجانوسكى (روسى): إن الثورتين الفرنسية والشيوعية قد فشلتا.. وإن العالم بحاجة إلى ثورة قادرة على تصحيح مسار الإنسانية.. وهذه الثورة لن تأتي إلا من العالم الإسلامي.

أرنولد توينبي ـ شبنجلر ـ أليستركوك : يتنبئون بقرب انهيار الحضارة الغربية، ودللوا على ذلك بأمور :

١- سرعة الانهيار الأخلاقي.

٢- عدم تمكن القانون والمحاكم من وقف هذا الانحدار السريع .

- بيتريم سوركين (عالم اجتماع أمريكي وأستاذ بهارفارد): «إن أمريكا تسير مسرعة نحو كارثة، فهي تسير في نفس الاتجاه الذي أدى إلى انهيار الحضارتين الإغريقية والرومانية (يقصد الانهيار الأخلاقي)».

٣- جون كينيدي سنة١٩٦٢ : «إن مستقبل أمريكا في خطر لأن شبابها مائع - منحل - غارق في الشهوات - ولا يريد تحمل المسئولية. ومن بين كل ٧ يتقدمون للتجنيد هناك ٦ فقط صالحون» .

٤- المؤرخ البريطاني بول كينيدي: «إن أمريكا في حالة انهيار ولم تعد قادرة على فعل شيء للحفاظ على كيانها، وبين لحظة وأخرى ستأتي الكارثة» .

- وبريطانيا بلد بول كينيدي ليست أحسن حالا بكثير.

يدعم الشهادات السابقة بعض الإحصائيات عن أمريكا:

- ٧ مليار دولار تنفق سنويا لإطعام وعلاج الكلاب.

- ربع أطفال أمريكا يعيشون تحت خط الفقر.

- ١٠ مليون مصابون بالإيدز.

- كل عام تحمل (تحبل) أكثر من مليون فتاة أمريكية، ٨٠٪ منهن يحملن سفاحا.

- ١٣ مليون طفل بدون آباء.

- في الجيش الأمريكي ٢٠٠.٠٠٠ شاذ جنسيا.

- الكنيسة البروتستانتية الأمريكية تبارك زواج الشواذ، «كنيسة كاونتربري البريطانية تفعل الشيء نفسه» .

- القسس والكرادلة انتشرت بينهم العلاقات الجنسية الشاذة .

- جريمة كل ٥ ثوان (قتل أو سرقة، أو قتل مع سرقة، أو اغتصاب) .

- في بعض المدن لا يخرج الناس بعد الغروب خوفا على أنفسهم.

* * *

عوامل قيام وسقوط الحضارات

١- أعمار الأمم:

- وهو قانون صاغه ودلل عليه ابن خلدون في المقدمة : «إن للأمم أعمارا كأعمار الناس، تبلغ ذروتها مع الجيل الرابع ما شاء الله لها أن تبقى، ثم تبدأ في الانحدار».

٢- الأخلاق:

- هي آفة كل حضارة ، والسوس الذي ينخر في قواعدها ويقوض بنيانها.

- وهي قاسم مشترك وقانون لا يتبدل في كل الحضارات التي عرفها التاريخ.

- وأول هذه الأخلاق وأخطرها العدل.. بحيث إن انتشار الظلم يعني نهاية هذه الحضارات.

- وقد جعل ابن خلدون عنوان فصل كامل في المقدمة «فصل في أن الظلم مؤذن بخراب العمران» قال: «اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يعلمونه من أن مصيرها ومآلها هو انتهابها من أيديهم فإذا كان ذلك كسد العمران وبارت الأسواق وابذعر (تفرق) الناس في الأمصار » .

- وإن السبب القوي الذي يمسك الحضارة الغربية أن تزول وتسقط إلى الآن رغم انحلالها واجتماع الكثير من عوامل سقوطها هو أن أهلها في أغلبهم لا يتظالمون بينهم ولا يستعبد بعضهم رقاب بعض، فلا زال العدل سائدا داخل حدود أوطانهم بدرجة كبيرة.

- **ومجمل القول في عنصر الأخلاق** أن الله يسلط على الأمم التي يشيع فيها فساد الأخلاق أمما ربما كانت شرا منها وهذه من سنن التدافع فتكون سببا في هلاكها ﴿ **وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ٢٥١** ﴾ [البقرة]، **وشواهد التاريخ على ذلك كثيرة منها:**

أ- كان اليهود في وقت من الأوقات أتباع الحق وحملة الرسالات.. ولكنهم عندما قصروا وغرقوا في الآثام عاقبهم الله بنبوخذ نصر البابلى الوثني (٥٨٦ ق.م.) فسامهم سوء العذاب .. وأباد وأسر وعذب منهم ستين ألفا.

ب- بعث عمر بن الخطاب برسالة إلى عمرو بن العاص إبان فتح مصر جاء فيها: إن الفتح قد أبطأ بكم وما أظن ذلك إلا لذنوب أحدثتموها....

ثم أوصاه ومن معه بتقوى الله وقال له:

إنكم لا تنصرون على عدوكم بكثرة عدد ولا عدة ولكنكم

تنصرون عليهم بطاعتكم لله ومعصيتهم له.. فإن عصيتموه ساويتموهم في المعصية وكاثروكم في العدد والعدة .

ج- رسالة مشابهة من عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجراح واليه على الشام **جاء فيها**:

إياكم وإغضاب الله، ولا تقل إن عدونا شر منا (كافر) فلن يسلطه الله علينا.. فرب قوم سلط عليهم شر منهم.

* إن مقولة: «رب قوم سلط عليهم شر منهم» التي ذهبت مثلا في حركة التاريخ والاجتماع هي قانون من قوانين النصر والهزيمة وقيام الحضارات وسقوطها.. كما أنها وثيقة الارتباط بسنة التدافع .

د- يتجلى قانون «رب قوم سلط عليهم شر منهم» ومعه سنة التدافع.. يتجليان أشد ما يكون وضوحا في ملحمة الصراع الإسلامي- الصهيوني المسيحي...

- فقد سلط الله علينا أحفاد القردة والخنازير وحلفاءهم البيض .

- فهم قدر الله فينا بتقصيرنا وتخاذلنا وتضييعنا لمعالم الحق....

- وسيظل هذا القانون وتلك السنة ماضيين فينا حتى نفيق ونثوب فتنطبق علينا قوانين الصعود.

٣- الامتداد الزمني والانبعاث الحضاري (عامل خاص بالحضارة الإسلامية):

- ضربت الحضارة الإسلامية الرقم القياسي في امتدادها الزمني على رقعة التاريخ... إذ بلغ مجموع حقبها - باستثناء فترات السقوط والتعثر- حوالي عشرة قرون متصلة.

وهناك ملاحظتان على هذا العامل:

أ- كل الحضارات التي قامت على مر التاريخ وازدهرت حينا من الزمان ثم سقطت فتلاشت ولم تقم لها قائمة بعد ذلك إلا الحضارة الإسلامية، وذلك لمرونتها وامتلاكها خاصية استئناف الحضارة (الانبعاث الحضاري).. فهي حضارة مرضت وذبلت عدة مرات لكنها لم تمت بل كانت تنتعش وتستأنف انبعاثها الحضاري، وهي خاصية وثيقة الصلة بحديث البخاري: «يبعث الله على رأس كل مائة عام ...»

- والملاحظ أن التجديد يكون على يد أشخاص: عمر بن عبد العزيز على رأس المائة الأولى، الشافعي على رأس المائة الثانية، الغزالي -ابن تيمية- العز ابن عبد السلام (رجال) يتبعه تجديد على مستوى الدول...

فأول دولة قامت هى دولة الرسول ﷺ في المدينة - ثم دولة الخلفاء الراشدين - ثم الدولة الأموية الأولى - ثم دولة الزبيرين - ثم الأموية الثانية- والعباسية بأطوارها الأربعة وقد جدد شبابها في أطوارها الأخيرة السلاجقة - ثم سقطت على يد التتار وقد تجدد شبابها جزئيا على يد الدولة الأيوبية والمملوكية - ثم كان التجديد الأكبر على يد الدولة العثمانية.

كما كانت هناك الدولة الأموية في الأندلس وقد تجدد شبابها على يد المرابطين والموحدين - ودولة المغول في الهند حتى أن الإنجليز حين دخلوا الهند لم يجدوا من يتصدى لهم غير هؤلاء.

كل دولة تحمل راية الحضارة لتسلمها إلى الدولة التى تليها (على ما كان بينها أحيانا من تناحر سياسى) ولكن كلما سقطت دولة قامت الأخرى على نفس ركيزتها المعنوية والثقافية لتكمل مسيرة الحضارة.

- ومن موافقات القدر العجيبة أن عثمان أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية قد ولد (٦٥٦هـ) وهى نفس السنة التي سقطت فيها بغداد على يد التتار وكأنها إشارة قدرية إلى حيوية هذا الدين وتجدده ومرونته وقابليته للانبعاث الحضاري من جديد رغم فداحة الخطوب وحجم المؤامرات.

ب- إن الغالب اليوم هو ظهور أفراد مجددين؛ إذ ليس للإسلام دولة بعد، لكن يظهر الله رجالا مجددين مثل حسن البنا يعيدون تفهيم

الناس الإسلام الحق ويربون الرجال القادرين بعد ذلك على صنع الدولة النواة .

- فظهور مجددين من أمثال حسن البنا يعتبر ظاهرة حضارية منضبطة بحركة التاريخ وقوانينه الحاكمة .

- قد تقوم حضارة مثل الحضارة الصينية الجديدة الآن دون أن يعد ذلك نوعا من الانبعاث الحضاري، وذلك لأن الحضارتين الصينية القديمة والحديثة قامت كل منهما على ركائز معنوية وأدبية مختلفة في الفكر والثقافة والمعتقد الديني...

- وإلا لاعتبرنا الحضارة التي قامت في مصر الإسلامية ومصر الفرعونية شيئا واحدا لاتحاد عامل الشعب أو الأرض.

- حتى الحضارات التي قامت في مصر الفرعونية لا نستطيع أن نعتبرها بأسرها المختلفة شيئا واحدا؛ إذ كان لكل منها معبودها ومعتقداتها وثقافاتها، ولا يجمع بينها غير وثنيتها وعبادتها غير الله.

٤- التفوق العددي:

- الحضارات التي خاضت معارك وحروبا وصراعات فيما بينها كان بعضها أكثر عددا من بعض.

- ولا شك أن للعدد تأثيره بدليل قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنفال] . يعني حدد لنا النسبة التي يجب الصمود والثبات لها، ثم عاد سبحانه فنسخ ذلك تخفيفا .. ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنفال] .

- لكن العجيب أن أغلب أيام المسلمين المجيدة ومواقفهم المشهودة كانوا فيها قلة ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة].

- بل الأعجب أن الهزيمة كانت من نصيبهم أحيانا حين كانوا كثرة لإعجابهم بكثرتهم مثل يوم حنين: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ [التوبة:٢٥].

- وأحيانا كانوا أقل عددا ثم هزموا ولكن ليس بسبب قلتهم وإنما بسبب لهفتهم على الغنيمة، مثل أحد وبلاط الشهداء.

٥- التفوق العسكري (العددي):

- للتفوق العسكري دوره الحاسم في المعارك والصراع الحضاري .

- ولكن الحضارة الإسلامية لها خصوصيتها أيضا في هذا المجال كخصوصيتها في مسألة الامتداد الزمني والانبعاث الحضاري...

- هـذه الخـصوصية تتمثـل في أن التفـوق العـسكري مـدد إلهـي ومكافأة سماوية يكافئ الله بها المقاتلين في سـبيله، والمنـصاعين لأمـره، الصابرين على لأواء الحرب ومرارة الصراع... أكثر منه عنـصر حـسم بذاته.. وذلـك عـلى فـرض بـذل الوسـع واسـتكمال الجهـد في سـائر الجوانب.

مثال: رجل بعث خادمه أو ولده في مهمة ليقضى لـه طلبـا في يـوم حار.. ولم يعطه دابة ولا سيارة، فامتثل الأمـر طائعـا صـابرا مـستعينا بالله، فلما رأى منه أبوه (أو سيده) ذلك كافأه على طاعتـه وصـبره بـأن أعطاه دابة أو سيارة فكانت مكافأة أكثر منها وسيلة إنجاز؛ ذلك لأنـه امتثل قبلها .

الأمثلة التاريخية كثيرة:

أ- سلاح المياه – سلاح الملائكة في معركة بدر .

ب- سلاح حفر الخندق – سلاح حيلة نعيم بن مسعود – سلاح الريح (في معركة الخندق).

ج- سلاح كرات النار الحارقة التي ابتكرها المقدسي الكيميائي لحرق الدبابات (الأبراج الحديدية) التي دوخت المسلمين في الحروب الصليبية حيث كانت تدك الحصون وتنقبها وتفتح الطريق للتسلل عبرها.

د- سلاح الحيلة العجيبة في فتح القسطنطينية التي آتاها الله وفهمها محمدا الفاتح.

- وقد تمثل هذا السلاح في فكرة تحريك السفن على البر وفوق الجبال على الألواح الخشبية المغطاة بالشحم والزيت مسافة ثلاثة أميال كي تتخطى السلاسل الحديدية العملاقة في بحر مرمرة.

- شهد المؤرخ البيزنطي (يلماز أوزنتونا) : «كانت هذه هي المرة الوحيدة في التاريخ التي سارت فيها السفن فوق البر وعلى الجبال بدلا من البحار .. ولقد فاق محمد الثاني الإسكندر الأكبر».

هـ- من الأحداث العجيبة التي وقعت في أفغانستان إبان الغزو الروسي، والتي شهد عليها الجنود الروس بأنفسهم وسجلها د. عبد الله عزام رحمه الله في كتابه **(آيات الرحمن في جهاد الأفغان)**:

- أنه عندما كان الروس يشرعون في ضرب مواقع المجاهدين بالطائرات كانت تحلق أسراب من الطيور وتغطي السماء حتى تجعل الطيران مستحيلا.

- **والآن نتساءل** : هل إذا امتلكت الأمة المهزومة روحيا ومعنويا سلاحا متطورا من شأنه أن يقلب موازين الصراع.. هل يمكن لها حينذاك أن تنتصر؟!

الجواب يتضح من خلال القصة التالية:

- استطاع أحد مسلمي الأندلس أواخر أيامهم بها «واسمه أبو بكر العجام» أن يتوصل إلى تركيبة البارود الذي استعمل بعد ذلك من خلال البنادق والمدافع بدلا من كرات النار التي كانت تقذفها المجانيق.

- وكان سلاحا ولا شك من شأنه أن يغير نتيجة المعركة لصالحهم.. فهل حدث هذا فعلا؟ .. لا لم يحدث .

- لقد كان المسلمون يعانون سقوطا حضاريا مروعا في القيم والمثل والأخلاق والهمم.. سقوطا لم يمهلهم حتى يستفيدوا من هذا السلاح الفتاك..ثم لم تلبث غرناطة آخر مواقعهم أن سقطت.

- وهذا يؤكد الحقيقة الآنفة من أن التفوق العسكري هو مدد إلهي ومكافأة سماوية للمسلمين على تمسكهم بدينهم وانصياعهم لأمر الله وصبرهم على لأواء الحرب ومرارة الصراع أكثر منه عنصر حسم بذاته.

مثال على ذلك: لو أن رجلا نائما في بيته يضع تحت وسادته مدفعا رشاشا.. ثم تسلل إلى بيته لص لا يحمل أي سلاح أو لعله يحمل مدية على الأكثر.

- لو أن صاحبنا هذا الذي يمتلك المدفع كان جبانا تافها لدرجة أنه كان يبول على نفسه، وكانت أسنانه تصطك ببعضها، ويداه ترتعشان، وجسده كله ينتفض، هل مثل هذا سيتذكر مسألة المدفع؟

ولو تذكره فهل يقوى على حمله فضلا عن استعماله؟!

- فهذا حال أمة منهارة بكل المعاني، فلا يجديها حينئذ أي سلاح قبل انصلاحها روحيا ومعنويا.

٦- عوامل الصعود:

- كما أن لسنة التدافع دورها في سقوط الأمم فإن لها ولا شك الدور نفسه في الصعود.. ذلك لأن حركة التاريخ تعتمد على التوازن، فسقوط حضارة يعني في نفس الوقت قيام أخرى.

- ليست العبرة في عملية الصعود بحجم الكارثة (التي تعيشها الأمة) ولا عمق المأساة أو مرارة الجراح .

لكن العبرة تكمن في الإجابة على تلك التساؤلات:

١- هل الأمة مازالت تمتلك مقومات الصعود؟!

٢- هل الأمة قادرة على أن تسترد عافيتها؟!

٣- هل الأمة قادرة -اليوم أو غدا- على السير في طريق التعافي وحمل تبعاته؟! .. من همة عالية واستعداد للبذل والتضحية.

التغيير من خلال مفهوم الدولة المدنية في الحضارة الإسلامية

مفهوم الدولة المدنية في الإسلام:

١- لا عصمة لأحد بعد النبي ﷺ .. وعليه:

أ - فإن كل أحد (مهما كان) يؤخذ من قوله ويرد عداه ﷺ .

ب- وحتى أقواله ﷺ وكلام ربه عز وجل قد يختلف في دلالتها، غير أن أحدا بعينه لا يملك احتكار النص الديني (تأويلا وتنفيذا).

ج - ليس في الإسلام: إكليروس (طبقة رجال الدين)، ولا ثيوقراطية بمعنى الدولة الدينية التي تلزم الناس بالأحكام التي تراها على طريقة الأنظمة الفاشية الجبرية، ولكن في الإسلام علماء لهم احترامهم ويستعان بهم على الاقتراب من الحقائق الدينية.

٢- العلماء / أو الأئمة/ أو الحكام/ أو أي أحد أيا كان ليس لهم أدنى خصوصية في:

أ - تقرير العقائد.

ب- تحرير الأحكام.

ج - ممارسة أعمال السياسة (كالعزل والتولية) خلافا لإرادة شعبية حرة.

- **والشواهد على ذلك كثيرة .. منها:**

أ- أن النص الديني مهما بلغت قداسته كالقرآن، وكله قطعي الثبوت (مقطوع بصحة نسبته إلى الله ﷻ)، قد تكون دلالته ظنية:

ومن ثم يملك كل عالم حقا متساويا في الاجتهاد في فهمه - أما اختيار الأصلح لواقع المجموع فإن ذلك يتم بنفس الآلية التي يتم بها اتخاذ القرار في الأمور الدنيوية البحتة وهي الشورى .

ب- النبى ﷺ كان أوسع الناس مشورة لأصحابه إذا كان الأمر لا يتعلق بأحكام الدين وثوابته.

- بل كان كثيرا ما ينزل عن رأيه لآرائهم، **والأمثلة كثيرة:** (قوله ﷺ : الدين النصيحة -ثلاثا- لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم). رواه مسلم. فيما يسمى بتعريف الكل بأهم الأجزاء، كقوله: (الحج عرفة) لأنه أهم ركن فيها.. فكأنه ﷺ يريد أن يقول أن النصيحة والمشورة أهم شيء في الدين، وكذلك أخذه بمشورة جندي مغمور (وهو الحباب من المنذر) في بدر- ومشورة الصحابة في أحد بالخروج لملاقاة العدو ـ ومشورة السعدين: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة في غزوة الخندق، ومشورة عمر في الحديبية، حين أشار عليه بإرسال من هو أفضل منه لمفاوضة قريش وهو عثمان.

ج - أبو بكر أول خليفة لرسول الله ﷺ، كان أول تصريح له بعد تولى الحكم هو: «وليت عليكم ولست بخيركم - إن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، وإلا فلا طاعة لي عليكم».

فبالله عليكم هل دولة يقبل رئيسها النقد والتوجيه هي دولة جبرية؟!

د - عمر الذي اتسع صدره لمقوله الأعرابي: لا سمع ولا طاعة؛ لأن جلبابه كان أطول قليلا من الآخرين، حتى فسر لهم الأمر- وكذلك مقولته الشهيرة: أصابت المرأة وأخطأ عمر.

هـ- ذهب كثير من المؤرخين إلى أن الدولة الإسلامية كانت أول دولة مدنية في التاريخ تقوم على التشاور وعدم الانفراد بالقرار .

٣- الأمة مصدر السلطات:

أ- تشريعية: فالشعب وحده هو صاحب الحق في اختيار من يمثله في المجالس النيابية دون تدخل السلطة التنفيذية .

ب- قضائية: واستقلالها نوعان:

- استقلال مادي ، فلا سلطان للسلطة التنفيذية على القاضى من خلال الراتب ولقمة العيش، فالقضاة وهم صنف من العلماء يتقاضون رواتبهم من هيئة الوقف (في التصور الإسلامي) .

- استقلال فنى: لا يخضع تعيينهم للاستثناءات الناتجة عن ترغيب وترهيب السلطة التنفيذية كما أن القضاة وحدهم (من خلال مجلس القضاء الأعلى - أو ما في حكمه- المستقل استقلالا حقيقيا عن السلطة التنفيذية) هم وحدهم أصحاب الحق في الاختصاص بتوزيع الدوائر ونظر القضايا - وهم وحدهم أصحاب الحق في معالجة أمورهم من نوعية (النقل- الندب- الإعارة).

ج- التنفيذية: فالشعب والشعب وحده هو صاحب الحق الأول والأخير في اختيار من يحكمه عبر صناديق الانتخاب الحر .

❋ ❋ ❋

الشورى أو الديموقراطية
كآلية من آليات التغيير في التصور الإسلامي للدولة المدنية

كثيرا ما يطرح هذا السؤال نفسه على المشتغلين بالشأن الإسلامي عامة وفقه التغيير خاصة وهو:

١- هل تتطابق الشورى مع الديموقراطية تماما؟

والجواب الصحيح يتضح من التعرف الكامل على كل منهما:

- **الديموقراطية** : كلمة يونانية من مقطعين:

الأول (ديموس) ويعني الشعب، **والثاني** (كريتس) ويعني الحكم، فيكون المعنى: حكم الشعب/ أو أن يحكم الشعب نفسه بنفسه/ أو حكم (رأي) الأغلبية وهذا هو المفهوم السائد.. ولكن عند الذين نحتوا المصطلح .. وآمنوا به.. وطبقوه .. وبشروا به فإنها تعني حكم (رأي) الأغلبية أيا كان ولو كان مخالفا لأحكام الدين وثوابته.

الشورى: كلمة عربية مشتقة من شور، أي جمع العسل، فكأن الذي يشاور الرجال يجني الشهد.

- هي تتطابق مع الديموقراطية في جزئية الأخذ برأي الأغلبية.. نعم .. لكن لإعمال الشورى ضوابط، فما هي؟

- ضوابط الشورى (متى نعمل الشورى؟).

- **تكون الشورى في ثلاث حالات:**

١- فيما لا نص فيه .

٢- في النص ظني الدلالة (فيما تعددت فيه الآراء).

٣- في المصالح المرسلة.

وبناء عليه :

- فلا مجال للشورى في أمور نزلت بها النصوص قطعية الدلالة كحرمة الخمر، الزنا، ووجوب صوم رمضان، موالاة المؤمنين وعدم موالاة الكافرين ، فرضية الحجاب، تطبيق أحكام الشريعة .. إلخ.

- إنما مجالها في أمور لا وجود لها في النصوص قطعية الدلالة.

- في أمور لها شواهد من النصوص لكنها ليست قطعية الدلالة فذهب كل عالم فيها مذهبا أو رأى رأيا وعند الأخذ بأحد هذه الآراء يطرح الأمر للشورى لانتقاء الأنسب.

- في المصالح المرسلة : وهى أمور تعلقت بها مصالح العباد ليس في الدين نصوص بفعلها أو تركها مثل قوانين المرور وسائر القوانين التى تنظم مصالح الناس، فهذه يتشاور بشأنها المعنيون بالقرار قبل إصداره على النحو الذي يحقق مصالح الناس وفق قواعد العدل والاستقامة.

- وهكـذا فـإن نفـس هـذه الـضوابط الآنفـة لـو طبقـت عـلى الديمقراطيـة فلـيس للإسـلام اعـتراض عليهـا، بـل تـصبح مطابقـة للشورى الإسلامية.

- ليست الشورى مفهوما سياسـيا ضـيقا يقتـصر عـلى مؤسـسات الحكم والدوائر العليا للقرار في الدولة، بل هو سلوك إنساني حضاري ينبغي أن يمارس على كافة الدوائر والمستويات كـالأسرة ، والعمـل ، وكل مرافق الدولة ، البرلمان، الحكومـة، مؤسـسات المجتمـع المـدني، مؤسسة الرئاسة.. إلخ.

- **آليات الشورى أو الطرق التي تتم بها:**

- لا يعنيني في هذه الفكرة (آليات الشورى) أن أسـتعرض أمـاكن وآليات تنفيذها؛ لأن الشورى ما دامت مطبقة فلـيس ثمـة مـشكلة في التفاصيل.

لكن الآليات التي أعنيها هي أنواع الشورى:

١ - **المشورة:** وهي أن يبادر الجنـدي أو الفـرد بإبـداء رأيـه دون أن يطلب منه.

- وهذا لن يـتم إلا في أجـواء يـسودها الحـب العميـق والاحـترام المتبادل بين القيادة والجنود.

- فلو لم تكن هذه الأجواء متوفرة بين رسول الله ﷺ ومن حوله لما بادر رجل من الأغمار مثل الحباب بن المنذر بإبداء رأيه المخالف لـرأي

القائد، الذي بدوره لم يكتف بحسن الاستماع بل سارع إلى تنفيذ الرأي حين تبين له حكمته وصوابه، والملاحظ أن الجندي سأل النبي ﷺ في البداية إن كان الله هو الذي أمره بالنزول في هذا الموضع، لكن النبي ﷺ نفى ذلك (يعني نفى أن يكون الأمر من الله فلا مجال للشورى) وإذ انتفى الأمر الإلهي بادر الجندي بإبداء رأيه في جعل بئر ماء بدر خلف معسكر المسلمين وليس بينهم وبين المشركين (فنشرب ولا يشربون) بتعبير الحباب.

- ومن أمثلتها (المشورة): مشورة سلمان بحفر الخندق.

٢- **الاستشارة**: السين هنا يسمونها في اللغة العربية سين الطلب، فالاستشارة مصدر من استشار من أفعال الطلب- بمعنى أن يطلب المسئول من الجنود أو الأفراد أو الأعوان أن يقترحوا الحلول والآراء..

والاستشارة نوعان:

١- **مطلقة** : مثل أن يقول المسئول لإخوانه أو جنوده.. نحن بحاجة إلى آرائكم في هذه القضية أو هذه المشكلة فيدعوهم إلى إبداء الآراء.

- ومن أمثلتها قوله ﷺ قبل بدر: أشيروا علي أيها الناس.

٢- **مقيدة** : مثل أن يقول المسئول أو القائد لجنوده: لدينا مشكلة كذا، وقد اقترح فلان أو اقترحت أنا لها كذا، فما قولكم؟! أي أنه

يدعوهم إلى التصويت على رأي موجود بالفعل، فإما أن تقره الأغلبية وإما أن ترفضه فيبحثوا عن غيره .

– ومن أمثلتها استشارة النبي ﷺ السعدين (سعد بن معاذ وسعد بن عبادة) زعيمي الأوس والخزرج في اقتراح أبداه هو شخصيا كحل جزئي لأزمة الأحزاب..

– هذا الرأي هو مصالحة غطفان (أشرس القبائل التى قدمت لإبادة المسلمين) على الانصراف مقابل ثلث ثمار المدينة) ... فهنا..

– سأل السعدان ابتداء على عادة الأنصار في الفطنة والأدب مع الله ورسوله ﷺ .. سألا إن كان الأمر من الله فلا مجال للشورى.

– ولما أكد لهم النبي ﷺ أنه مجرد اقتراح اقترحه يستشيرهما فيه.. فهنا رفضا رفضا باتا بكل شجاعة أدبية.. فنزل معلم البشرية على رأيهما دون أدنى حساسية.

خاتمة في الشورى ودورها في البناء والتغيير:

١ – الشورى من دعائم الدولة الفاصلة التي ذكرها الله تعالى في آية من سورة كاملة اسمها الشورى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الشورى].

والذين استجابوا لربهم ... دعامة إيمانية تتمثل في الإيمان بمنهج الله.

وأقاموا الصلاة .. دعامة تربوية تتمثل في إقامة الصلاة والعبادات.

وأمرهم شورى بينهم .. دعامة سياسية تتمثل في الشورى.

ومما رزقناهم ينفقون .. دعامة اجتماعية تتمثل في التكافل.

٢- في سورة آل عمران آية (١٥٩) يقول الله تعالى فيها: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾.

- فهذه آية نزلت بعد أحد، يعني بعد هزيمة.

- أخذ فيها بالمشورة التي انتهت إلى رأي خلاف رأيه ﷺ. أقصد أن النبي ﷺ كان يرى التحصن في المدينة ومحاربتهم، ورأى الأكثرون خلاف ذلك فنزل على رأيهم.

- انتهت بالهزيمة.

- ومع ذلك ينزل الوحي مؤكدا لا تتركوا الشورى .

٣- الشورى هي الضمانة الأولى للعدل؛ لأن الحاكم حين يحكم بالعدل ...(دون مشورة) قد يظلم من حيث ظن أنه يعدل، كقوله تعالى على لسان فرعون رمز الاستبداد ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩﴾ [غافر].

- فهو يعتقد أنه يتخذ القرارات التي فيها صالح قومه؛ لأن العدل كثيرا ما يكون نسبيا من المنظور الفردي .

٤- فما دامت الشورى بهذا الشكل فهي تصحيح دائم لأوضاع داخل الجماعات، وتغيير نحو الأفضل، وارتقاء نحو الأعلى، سواء في دنيا الناس أو مجال إرضاء الله عز وجل.

٥- هل الشورى ملزمة للحاكم أو المسئول أم غير ملزمة؟

- يرى البعض أنها ليست ملزمة.

- لكننا بلا شك ننحاز إلى القول بأنها ملزمة على الأرجح .

- وليس هذا مجال البحث الفقهي حول هذا الأمر.

- ولكن الذي يختلط على كثير من الناس في رأي القائلين بأنها ليست ملزمة.. هو أن القائلين بهذا الرأي لم يقصدوا أن تكون غير ملزمة على الإطلاق ، في جميع المرات.

- لكنهم يقصدون على مستوى المرة الواحدة أو المرات المتباعدة.

- والذي لم يقصدوه مطلقا هو أن يشاور المسئول الناس كل مرة ثم لا يأخذ برأي أغلبهم، فالشورى لو كانت كذلك فما قيمتها كما تساءل الشيخ الغزالي ﵀. بل إن الحاكم الذي يستبد برأيه على طول الخط يجب عزله، وإنما لو حدث في بعض المرات من باب أنه ربما أدرى وأعلى عينا من بعضهم.

- وقد أعجبتني بعض الاجتهادات المعاصرة للمودودي وغيره، خلاصتها أنه من الممكن أن تحدد اللوائح نسبة كثلثي المجلس مثلا

كحد أدنى للأغلبية بحيث يصعب أن يجتمع مثل هذا العدد أو النسبة دون أن يكونوا على صواب ولو كان مخالفا لرأي المسئول .

ضمانات العدل في النظام الإسلامي

١- عدالة القانون.. فهو لا يستمد من تشريعات البشر بل رب البشر.

٢- وضوح القانون.. وبعد مواده عن الالتباس والغموض.

٣- ضمير القاضي.. بشرط استقلال القضاء فنيا وماديا، واختيار القضاة على أسس عادلة.

٤- الشورى: في كل المجالات وخاصة الحكم والقضاء؛ لأن الشورى هي الضمانة الأولى للعدل كما أسلفنا، إذ ربما يحكم القاضي أو الحاكم بالظلم من حيث يظنه العدل.

٥- رقابة المجتمع.. المجتمع الذي يتنفس أجواء الحرية والشورى والاحترام العميق والحب المتبادل بين كل أبنائه، ويستشعر كل واحد فيه مسئوليته أمام الله «كلكم راع.. الحديث» .

* * *

جهاد النفس والشيطان

- عودة مرة أخرى إلى خريطة التغيير بشيء من التفصيل:

١- التغيير قبل التمكين : - تغيير النفس والشيطان.

- تغيير المنافقين.

- تغيير الظالمين.

٢- بعد التمكين : - المنافقين.

- الكافرين.

- مع ملاحظة أن هذه التقسيمات تقريبية..

- وإلا فإن جهاد النفس وتربيتها مطلوب في كل حين.

- غير أن قدرا معينا من إعداد النفس لابد من إحرازه وتحصيله قبل التمكين، كتربية النفس على معاني الهمة العالية والرجولة، والاستعداد للتضحية والبذل، وتحمل الأذى، كما حدث مع أصحاب رسول الله ﷺ في أيام الدعوة الأولى حين كان قيام الليل فرضا عليهم.

- والظالمون موجودون في كل وقت، غير أن وجودهم في سدة الحكم هو بذاته أكبر عقبة في طريق التمكين .

- والمنافقون موجودون قبل التمكين يثبطون ويخذلون وينشرون روح الشك والفجور والخصام.. كما أن لهم دورهم حتى بعد التمكين كما حدث في دولة الرسول ﷺ في المدينة.

جهاد النفس والشيطان:

- لابد لمن يخوض غمار عملية التغيير بأنواعها ومراحلها من إعداد نفسه ومغالبة هواه وشيطانه.

- وهذا هو أول الميادين.. من نجح فيه كان في غيره أقدر وأنجح.

- ولعل هذا يفسر المقولة الرائعة للمستشار حسن الهضيبي - المرشد الثاني للإخوان ؒ - :«أقيموا دولة الإسلام في صدوركم تقم على أرضكم» .

- ويعتبر المسلم لائقا لأنواع ومراتب الجهاد الأخرى إذا كان بدرجة كبيرة عصيا على شيطانه، مالكا زمام نفسه، يصرفها ولا تصرفه.

- يقول الإمام الغزالي: «النفس صالحة بالفطرة لقبول آثار الملك وآثار الشيطان قبولا متساويا ويترجح أحدهما بالمجاهدة (التربية) » .

- وكلام الغزالي مأخوذ من حديث رسول الله ﷺ: «إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد شيئا من

ذلك فليعلم أنه من الملك، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان. ثم قرأ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة:٢٦٨]» (رواه الترمذي).

- وسائل التربية:

١- العلم:

فهو الوسيلة لمعرفة الله وخشيته ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨] وقوله ﷺ: «وكل شيء يستغفر لطالب العلم حتى الحيتان في الماء» (أبو داود والترمذي وابن ماجه). ثم السعي لتغيير الواقع ليصير موافقا أو أقرب لمشيئته سبحانه كما حددها لنا ورسم معالمها القرآن والسنة بفهم العلماء الصادقين.

- الأمر الذي يحتاج إلى الإلمام بهذا كله.. وهذا هو العلم.

- وفي الأثر: «عالم واحد أعصى على الشيطان من ألف عابد».

- ومن طرائف الأحكام الكلية للشريعة الغراء أن المتفرغ للعلم - أيا كان نوعه مادام نافعا لجماعة المسلمين - ينفق عليه من بيت مال المسلمين، وليس ذلك للعابد المتفرغ لعبادته.

- القدر المطلوب (تحصيله) من العلم لعامة المشتغلين في حقل التغيير هو القدر الذي تسلم به العقيدة، وتصح به العبادة والمعاملات،

والذي يتم به استيعاب واقع المسلمين، والتحديات التي تكتنف عملية التغيير .

٢- العمل:

والمقصود به أن يعمل المرء بعلمه، فلا يعتقد أن علمه وحده سينجيه بغير عمل.

لو كان للعلم من دون التقى شرف   لكان أشرف خلق الله إبليس

- ودائما تقترن صفة الذين آمنوا في القرآن بالذين عملوا الصالحات.

- ويتجلى المنهج العملي الرائع لضرورة اقتران العلم بالعمل في منهج الرسول ﷺ أول البعثة حين كان يعلمهم الآيات عشرا عشرا، لا يغادرونها إلى غيرها حتى يحفظوها ثم يعملوا بها .

- **ويشمل العمل ما يلي:**

أ- التكاليف الشرعية من عبادات.

ب- إجراء المعاملات المالية والعقود والأنكحة وما شابه وفق أحكام الإسلام.

ج- تزكية النفس.. بوسيلتين:

١- كف النفس عما تحب.

٢- حملها على ما تكره في طاعة الله.

فأنت تكفها عما تحب كالطعام والشراب والشهوة في رمضان وصوم التطوع، وأنت تكفها عما تحب إن كان ربك لا يحبه، وأنت تحملها على ما قد تكره من الطاعات والذكر لأن ربك يحبه .

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصح فاتهم

- وللنفس مناعة إيمانية كالمناعة الحيوية (البيولوجية) للجسد .

- فمثلما تحمى المناعة الحيوية الجسد من الجراثيم والميكروبات فإن المناعة الإيمانية تعصم النفس من الانحراف والزلل.

العوامل التي تؤثر في المناعة الإيمانية :

قال حكيم: «يعرف المؤمن بقوة إيمانه واستعصائه على الشيطان في ثلاثة مواضع:

١- إذا غضب.

٢- إذا رغب.

٣- إذا رهب.

- وبحسب سلوكه في كل حال من هؤلاء تزيد مناعته أو تنقص .

أولا: الغضب :

- وبعض الناس لا يصلح لشيء حال غضبه إلا أن يفسد كل شيء.

- والغضب حالة من حالات انهيار المناعة الإيمانية تدع النفس نهبا لكل جراثيم الغزو الشيطاني .

- قال الرافعي ﷺ عن نفسه: «ولا يفسد على من أمري شيء مثل الغضب، فإذا غضبت كنت غير من كنت» .

- لذلك فقد جعل الله صفة القدرة على ابتلاع الغيظ ومقاومته واحدة من صفات المتقين: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ .

ثم يشرع في سرد صفاتهم: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عمران] .

قال ﷺ : « ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» (متفق عليه).

- وقد حددت السنة المطهرة لنا الخطوات الواجب اتباعها في مثل هذه الحالة؛ كي تمر بسلام (حالة الغضب):

* الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم.

* تغيير الوضع (من جلوس أو اتكاء أو قيام) .

* الخروج من المجلس إذا كان الغضب شديدا أو أن يكون بالمجلس شخص يدفعك وجوده إلى تصاعد الغضب .

* الوضوء.

* الامتناع عن الكلام أو اتخاذ القرارات حتى يزول الغضب.

- لذلك فمن أهم اللوازم النفسية لمن يتعرضون لعملية التغيير ألا تكون قراراتهم انفعالية وإلا فهم بعيدون عن الإخلاص والتجرد منساقون وراء الأهواء جاهلون بقضيتهم مضيعون لرسالتهم .

ثانيا: الرغبة :

- وتشمل طمع الدنيا من (طعام - مال - شهوة - جاه).

- ولكل إنسان جانب من هذه الجوانب يضعف فيها أكثر من غيره فتكون بابا يلج منه الشيطان إلى نفسه فيعيث فيها فسادا.

- لذلك ففي عالم الجاسوسية عندما يراد تجنيد أحد من بلد معاد فإن القائمين على تجنيده ينقبون في جوانب شخصيته ليعرفوا مواطن الضعف فيها .. هل هو نهم للطعام؟ .. هل هو شره للمال أم يسيل لعابه أمام النساء؟ أو هل هو شغوف بالمناصب والسلطان؟!.. ثم يتعاملون معه ويفيدون منه حسب ذلك .

- وقد رتب علماء الأخلاق والتصوف هذه الرغبات (عند غالب البشر) بحيث إن أدناها الطعام ثم المال ثم النساء وأعلاها حب الجاه.

- قال أحد الصالحين : «لو ائتمنت على قنطار من ذهب لظننت أن أؤديه، ولو ائتمنت على جارية سوداء أخلو بها ساعة لخفت ألا أؤديها».

- ولذلك يقول ﷺ : «واتقوا فتنة النساء فإن فتنة بني إسرائيل كانت في النساء» (رواه مسلم).

- وأعلى هذه الرغائب وأصعبها حب الجاه .. قال أحد الصالحين: «آخر حظوظ الدنيا خروجا من قلوب العباد حب الجاه».

ثالثا: الرهبة (وهي الخوف) :

- قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ ﴾ [آل عمران:١٧٣].

- ويقول المصطفى ﷺ :«ألا لا يمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه، فإنه لا يباعد من رزق ولا يقرب من أجل أن يقال بحق أو يذكر بعظيم» (رواه الترمذي وأحمد).

- والخوف يكون على: (النفس أو المال، أو الأهل والولد، أو المنصب والجاه).

- والمخرج يكمن في تتمة الآية السابقة.. ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ

يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾

[آل عمران] .

- وخوف الله وخشيته نعمة كبيرة، إذا سكنت قلب العبد هرب منه كل خوف من غيره.

- والعلم يشفع لأن يوصل العبد إلى مرتبة الخوف.

- لذلك فأحق الناس بخشيته تعالى هم العلماء: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:٢٨] .

- لكن هل كل عالم يخشى الله بالضرورة؟!

- الحقيقة أن الارتباط بين العلم وخشية الله ليس لازما في كل حال.

- إذ من العلماء من يعصي الله جهرة أو سرا.

- ومن العلماء من يخشى الله ولكن خشيته للسلطان أشد.. ومن العلماء من يخشى الله ولكن حرصه على منصبه أو ماله أشد.

- حدثنا أحد الأصدقاء أنه كان قبل أن يمن الله عليه بطريق الالتزام الصحيح والهداية الحقة.. كان في التزامه الزائف يحفظ كل كتب العقيدة المطروحة في الساحة ويدرسها للناس ويفاخر بعمله.. ولكنه إذا أراد أن يعود إلى بيته وأحس بالمخبر يسير خلفه فإنه كان

يموت فرقا وهلعا.. ولم يشفع له علمه في العقيدة الذي يقتضي منه ألا يخاف من غير الله.

٣- الدعوة:

- قد يعجب البعض أن تكون الدعوة من وسائل التربية، ولكن ربما يزول العجب حين نعلم:

١- أن دعوة الآخرين إلى ما نؤمن به هي أعلى مراتب الاقتناع.

٢- وهي فطرة مركوزة في دخائل النفس البشرية، ومستقرة في أعماق الضمير، بحيث يود المرء خالصا من قلبه لو آمن الناس جميعا بمثل ما يؤمن به.

٣- أنها أشرف الأعمال بعد عبادة الله؛ لأنها هي نفس مهمة الرسل والأنبياء، فكيف لا تكون تربية بذاتها؟

٤- أنها مصدر قوة مستمرة للأمة من خلال النصح المستمر والتغيير إلى الأفضل الذي يترتب عليها.. ناهيك عن دخول أتباع جدد إلى حوزة الإسلام، فهي مصدر انتشار أفقي ورأسي للرسالة.

٥- وهي مصدر العناء والمجاهدة والابتلاء المتكرر لأصحابها، فليس عجيبا أن تكون من وسائل التربية.

- وما كان أعداء رسول الله ﷺ ليناوئوه لو كان مشروعه الدعوي قاصرا على حدود القناعة القلبية والطقوس التعبدية .. **والدليل على ذلك:**

أ- أن رسول الله ﷺ لم يكن أول من نادى بالتوحيد، بل كان يعيش في جزيرة العرب من سموا بالحنفاء وهم الموحدون على ملة إبراهيم الذين لم يعترفوا بالأوثان قط مثل: قس بن ساعدة، أمية بن أبي الصلت، زيد بن نفيل، ورقة بن نوفل.

- والنبي ﷺ نفسه عرف عنه عدم السجود للأصنام حتى قبل البعثة، وصديقه الصديق أبو بكر كذلك.

- كل هؤلاء لم يثبت أن أحدا قد تعرض لهم بسوء .

ب- قصة في سيرة ابن إسحاق مؤداها أن رسول الله ﷺ كان ذات يوم من بواكير أيام البعثة الأولى في بيت عمه العباس- ولم يكن قد أسلم بعد- يلتقي أتباعه في بعض غرف بيت العباس .

- وكان في الوقت نفسه قد نزل أحد الغرباء ضيفا على العباس في غرفة أخرى فبينما هما يتجاذبان أطراف الحديث إذ سمعا همهمة في البيت، فتساءل الضيف عن هذا الصوت مندهشا، فأجابه العباس: لا عليك، هذا ابن أخي يزعم أنه يكلم من السماء، ومعه زوجه (خديجة)، وصاحبه (أبو بكر)، ومولاه (زيد بن حارثة)...

- تقول الرواية أن الضيف استأنف الحديث مع العباس.

- إلى هذا الحد لم يكن خبر رجل يزعم أن الوحي يأتيه من الله عجيبا .. بقدر ما كانت الغرابة وكان العجب لطبيعة هذا الوحي ..

وهذا الدين .. هل هو دين كهنوتي يحمله أتباعه في صمت ويجلسون في محاريبهم ينتظرون كل وافد عليهم فيغيبوا معا في نشوة الصلوات الحالمة ثم ينتهي الأمر عند هذا الحد؟!

– أم هو دين يسعى لأن يغير خريطة الحياة وواقعها الاجتماعي؟

– ويضبط حركة الحياة ويهيمن عليها ويعيد ترتيب مفرداتها وفق رؤيته؟!

– **وإنني أتساءل** : هل كان رسول الله ﷺ سيتعرض لهذه المخاطر والمصاعب وعذابات السنين الطوال ويوشك مخالفوه على النيل منه أكثر من مرة لولا حفظ الله ومنعه؟! لو قصر همه على الصلاة والدعاء والجلوس في المساجد؟!

وعلى واقعنا اليوم نسقط هذه التساؤلات :

– هل كان يمكن أن يتعرض رجل من رواد الإصلاح والتغيير مثل حسن البنا لما تعرض له وما زال يعترض أتباعه حتى اليوم من سجن وقتل وتشريد وتعطيل المصالح ومصادرة الأموال؟! حتى انتهت حياته على هذا النحو الشاذ؟! لو أن الرجل قد قصر همه على أمور من نوعية : حلقات الذكر، ومجالس العلم، وتحقيق كتب التراث، وإنشاد المدائح النبوية، وحفظ القرآن –دون العمل به– ودفن الموتى، والبحث في قضايا فقهية من نوعية كم كان طول سواك النبي ﷺ ؟!

- فهل وضحت الصورة لنعرف لم يحارب الإسلام؟! ولأجل أي منظور في الإسلام يحارب المسلمون: لأجل المنظور العقدي أم التعبدي أم الدعوي؟

* * *

المنافقون
(أثرهم في التغيير- صفاتهم - جهادهم)

- أصل النفاق من النفق وهو سرب في الأرض له مخلص.

- والمعني المقصود هو أن يبطن الرجل الكفر ويظهر الإيمان.

- **والنفاق نوعان:**

١ - نفاق العقيدة : وهم الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان كما أسلفنا.

٢ - النفاق الاجتماعي: وهو مداهنة أهل الجاه والسلطان على حساب الحقيقة لينال صاحبها المال والجاه.

- وكلامنا هنا منصب على النوع الأول.. **ويجب أن نؤكد على عدة معان:**

أ - النفاق موجود قديما وحديثا في ديار الإسلام.

ب - لا نستطيع أن نتهم أحدا بعينه بالنفاق كما علمنا نبينا ﷺ الذي مات ولم يذع أسماءهم.

ج - القرآن الكريم والسنة المطهرة رسمت لنا كثيرا من ملامحهم لا لنتهمهم ولكن لنحذر منهم ونجنب المجتمع شرورهم.

المنافقون وأثرهم في التغيير

- ولا شك أن دعاة الإصلاح والتغيير هم أكثر من يعاني من هؤلاء: من كذبهم، وخيانتهم، وإفشائهم أسرار الصف المسلم الذي يعيشون بين ظهرانيه، وإشاعتهم الفاحشة بين الذين آمنوا باسم التحرر والتنوير..إلخ، كما نعاني منهم بتثبيطهم لنا وتحويل الناس عنا واتهامنا تارة بالجمود وتارة بالعمالة وهكذا .

- **صفات المنافقين:**

أ- الصفات الرئيسية: (التي ورد فيها حديث أو آية):

١- الكذب : «إذا حدث كذب» (من حديث مسلم).

- لا زال المنافقون في كل موقع في الإعلام والحكم يكذبون علينا ليل نهار لا يستحون .

٢- إخلاف الوعد: «وإذ وعد أخلف ...» الحديث السابق.

- ككل نائب أو حاكم لا يصدق رعيته ولا ينجز لهم ما وعد.

٣- خيانة الأمانات: ومنها أمانة الكلمة .. «وإذا اؤتمن خان».

- فهم أسرع الناس إلى خيانة الأمانة.. وأولها أمانة العمل الصحفي والإعلامي، وأمانة الكلمة التي سوف يسألون عنها .

- ككل من ولي من أمر الناس شيئا فلم يؤده، أو أداه على غير الوجه الذي يرضي الله ويرضي من ائتمنه.

٤- الغدر والخيانة: «وإذا عاهد غدر..».

- ذكرني هذا بأحد رموز المقاومة الفلسطينية، وقد شارك في قتله البطيء أحد الذين صنعهم الرجل بنفسه يوما ما!!

٥- الفجور في الخصام واللدد: «وإذا خاصم فجر»...

- فكم من هؤلاء صافى أناسا بالود ثم لم يلبث أن قلب له ظهر المجن خصاما مبينا حين أقبلت رياح المصالح والشهوات تقتضيه ذلك.

ولا خير في ود امرئ متقلب حيث مالت به الريح يميل

٦- تقلب الرأي والمواقف: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾[النساء:١٤٣].

- وذلك لأنهم لا يتبعون الحق وإنما يسعون وراء المنافع المتقلبة دائما في عالم السياسة.

- وهم مع تقلبهم لا يستحون من ذلك أبدا ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ

قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾[النساء].

٧- التثاقل عن الفرائض:

- «أثقل صلاة على المنافقين الفجر والعشاء» (رواه ابن ماجه).

- ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾[التوبة:٥٤].

- ﴿ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾[التوبة:٩٠].

٨- البخل عن البذل والإنفاق: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ﴾[محمد:٣٨].

- ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾[التوبة].

٩- قلة ذكر الله في أحاديثهم ﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾[النساء]. فليس لله تعالى وذكره أثر يذكر في أقوال هؤلاء أو كتاباتهم أو مجالسهم، ولو فعلوا ذلك نادرا فمن باب درء الشبهات؛ لكي يخدعوا الناس عن حقيقتهم .

١٠- عدم المشاركة في مشاريع الإصلاح والتغيير.

- وذلك لأنهم كالذباب لا يرتاد الأماكن الطيبة بل يرتـاد مـواطن العفن.

- ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ [التوبة:٦٧].

١١- موالاة الكافرين:

- ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) ﴾ [النساء].

١٢- حب شيوع الفاحشة والعمل على ذلك تحت أي اسم .

- قال الله ﷻ في سورة النور: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) ﴾ [النور].

مثل:

* الترويج للعرى تحت مـزاعم أن الحجـاب تخلـف وحجـر عـلى العقول.

* الترويج للعرى تحت زعم الجرأة في الفـن، كـبعض المخـرجين والمخرجات الذين اشتهر عنهم أو عنهن ذلك.

ب - الصفات الفرعية (كل منها فرع عن صفة من الصفات الرئيسة) :

١- تبني أطروحات الكافرين، والتزلف إلى أصحابها:

- وهي فرع عن الغدر والخيانة، مثل:

- مطالبة بعضهم بإلغاء المادة الثانية من الدستور حرصا على وحدة المجتمع.

- دعاوى عدم صلاحية الشريعة بوجه عام، في الوقت الذي تشيد فيه المؤتمرات والمجامع القانونية العالمية بصلاحية الشريعة الإسلامية واتساعها ومرونتها، وكذا دعوة كثير من المؤسسات الاقتصادية في العالم، ومعهم الفاتيكان مؤخرا، إلى تبنى أساليب الشريعة الإسلامية في التمويل كالمرابحة وغيرها كمخرج من الأزمة العالمية الاقتصادية.

- إطلاق دعاوى اضطهاد الإسلام للأقباط.

- أو أن المسلمين بقيادة عمرو بن العاص قدموا مصر لاحتلال ونهب خيراتها، ويكذبون الادعاء بالفتح وتخليص أهلها من بطش الرومان.

٢- إشعال الفتن وتأجيج بؤر الصراع داخل المجتمع:

- وهي فرع من الخيانة والغدر والفجور في الخصام واللدد، مثل:

- إثارة قضايا لا على سبيل الإصلاح والتغيير ولكن على سبيل الإثارة والتهييج والبلبلة ونشر الفتن والاضطراب، مثل قضية ختان

الإناث (مع أن كثيرا من الدعاة يتبنون نفس المضمون ولكن على سبيل الإصلاح).

- قضية الحجاب: تبنت كاتبة رأيا في الحجاب رافضا فرضيته (مع أنها لا تحمل أية شهادات علمية من الأزهر أو ما يعادله) فلما اعترض الأزهر لم تجد منبرا تنشر من خلاله رأيها أفضل من إذاعة إسرائيل.

- رئيس مؤسسة ثقافية كبيرة معروف بعدائه للدين استضاف كتابا نشروا روايات حكم الأزهر بكفر أصحابها متحديا الدين والمتدينين، وبحجة حرية الإبداع.

- مع أن هؤلاء لا يسمع لهم صوت أبدا في مسألة المحاكم العسكرية والاعتقالات المتكررة، وعدم تنفيذ أحكام القضاء الإداري بالإفراج عن المعتقلين، وكلها أمور تكال للإسلاميين وحدهم.

- ادعاءات الطائفية واضطهاد بعض الشرائح على نحو يشعل الأمور ويؤزمها (كالأقباط والشيعة والنوبيين والبهائيين).

٣- تبني الأطروحات الانهزامية والاستسلامية:

- فرع عن التثاقل عن الفرائض وخاصة القتال:

- تحت دعاوى أننا لا قبل لنا بأعدائنا وأن القضية الفلسطينية تخسر كثيرا بحمل السلاح بديلا عن المفاوضات .

كيف يتعامل الدعاة ورواد الإصلاح والتغيير مع هؤلاء؟

جهاد المنافقين

١- إجراء أحكامهم على الظاهر كما أمرنا.

٢- الحذر من التورط في الاتهام المحدد للأشخاص ، ولتكن سياستنا نقد الأفكار لا تجريح الأشخاص.

- ولعل هذا قريب من المأثور الشعبي: حرص ولا تخون.

٣- كشف زيفهم وفضح مواقفهم المزعومة بالشواهد والحقائق الواقعة أمام الرأي العام بطريقة عاقلة وذكية.

- لدينا في هذا المجال نموذجان:

أ- نموذج تاريخي يتمثل في نور الدين محمود بن زنكي ﷺ الذي عاش في زمن وبيئة شبيهين بواقعنا الحالي حيث كان كثير من الحكام حوله في الشام ومصر متورطين في الخيانة والعمالة للصليبين..

- فكان يكتفي بإرساء العدل في مملكته ويظهر ذلك ويعلنه، كما يسعى بكل حكمة لفضح ممارسات الخونة ويعلن ذلك أيضا، فكانت النتيجة أن فتحت البلاد أبوابها أمامه ولفظت حكامها الخونة.

ب - نموذج معاصر: وهو ما فعلته حماس مع بعض رموز الفساد والخيانة في السلطة حين رتبوا بمساعدة إسرائيل وأمريكا وبعض الأنظمة العربية؛ للإطاحة بحماس والإجهاز على عناصرها.

- فكانوا إزاء ذلك حذرين ويقظين فلم يفوتوا الفرصة عليهم وحسب بل أمسكوا بأيديهم الأدلة الواقعة التي فضحت المتورطين أمام الجماهير دون سب أو تجريح.

جهاد الظالمين

- إحدى المشكلات الكبيرة في عملية التغير هي وجود قيادات جائرة تمسك بدفة الحكم في أكثر ديار المسلمين .

- وهي ليست جائرة فحسب بل خائنة في بعض الحالات لله ولرسوله ﷺ ومصالح شعوبها.

- يتمثل ظلم هذه القيادات في الطريقة التي أتوا بها إلى الحكم بعيدا عن أي إرادة شعبية حرة.. ولما كان القانون السائد في عالم السياسة هو: (أن كل حاكم أو مسئول يعمل لحساب الجهة التي أتت به).

- فمن أتت به إرادة شعبية حرة فسيعمل لأجلها.

- ومن أتت به أمريكا أو إسرائيل فيعمل لأجلها وهكذا، فليس عسيرا أن يفهم الإنسان العادي لحساب من يعمل هؤلاء .

- ويشكل واقع الظلم الذي يصبغ لـون الحيـاة في ديـار المـسلمين عقبة من وجهين:

١- أنه باعتباره فسادا في الحكم والسياسة فإنه يترتب عليـه فـساد واضطراب في كل مناحي الحياة... (تعليم ، صحة ، اقتصاد ، زراعـة ، تصنيع ، عمران ، تسليح، مرافق، تجارة) .. وذلك لأن الـذين أتـوا إلى الحكم عبر هذه المسارات بعيد أن تكون همتهم منـصرفة إلى شيء غـير تأمين بقائهم في أماكنهم بأي ثمـن، فتتبـدد موازنـات الـبلاد كلهـا أو جلها في هذا الطريق.

٢- أن بلاد المسلمين -والحال كما سبق- لا أمـل لهـا في مواجهـة المشروع المعادي (الصهيوني ، الغربي).. كمستهدف حضاري يتعلق به مصير الأمة وهويتها قبل إصلاح الأمور داخل بلادهم .

- وذلك لأن هذه الأنظمة في الغالب قد استمدت مفاتيح وجودها وبقائها من أصحاب هذا المشروع المعادي.

- فمواجهة هذا المشروع أولا تقتضي التخلص من هذه الأنظمة .

- ومما لا ينقضي منه العجب أن أصحاب هذه المـشاريع المعاديـة لا يملون منذ عقود طويلة من ترديد مقولـة واحـدة مـضمونها: أن عـلى هذه الأنظمة أن تكف عـن اسـتبدادها وانتهاكاتهـا المـستمرة لحقـوق الإنسان مع تشديد النكير على ضرورة تطبيق الديموقراطية.

- والأمر لا يعدو أن يكون مزايدة وممارسة الضغوط على هذه الأنظمة لتمرير أجنداتها (أجندات أصحاب المشاريع المعادية).

- وأقرب مثال على ذلك ما أبداه الاتحاد الأوروبي مؤخرا (٢٠٠٨) على أحد الأنظمة العربية من مآخذ حول غياب الديموقراطية وانتهاكات حقوق الإنسان، ثم أضافوا إليها: وتهريب السلاح إلى المحاصرين في غزة.. فكأن الحديث عن الديموقراطية واجهة، والهدف الحقيقي هو حماية مصالح إسرائيل بخنق المحاصرين وقتلهم.

- والذي لا أشك فيه أن أصحاب المشروع المخالف ليس من مصلحتهم البتة أن تطبق هذه الأنظمة الديموقراطية في بلادنا؛ لأنهم يعرفون بمن ستأتي الديموقراطية، لذلك فهذه الأنظمة المستبدة أحب إليهم ألف مرة ممن يمكن أن تأتي بهم الديموقراطية وهم الإسلاميين المعتدلين.

* * *

كيف عالج الإسلام قضية التغيير؟

(وكيف تعامل معها المسلمون؟)

عالج القرآن قضية التغيير بالتأكيد على المعاني التالية:

١- **الذاتية**: وهي أن يبدأ الإصلاح من داخل الأفراد أولا.

- بالتأكيد على مبدأ الذاتية في التغيير ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١] فالبداية هي إصلاح النفس كما مر بنا.

- وبذلك يكون القرآن قد استبعد الحلول الخارجية والحلول الفوقية.

- أما الحلول الخارجية فتتمثل في أن تثور قوة عظمى ذات مشروع حضاري مغاير من قوى الأرض في وجه الظالمين فتخلصنا من أيدي الظالمين.

إن حالة في الماضي القريب تدخلت فيها قوة عظمى لإنقاذ دولة مسلمة من بغي أخرى حتى إذا ما فرغت مهمتها وقيل لها الشكر لك.. أبت أن تخرج حتى يومنا هذا، بالطبع لأن تدخلها لم يكن شهامة أو مروءة.

ولابد أن يعي رواد التغيير ذلك ويفهموا الناس أنه وهم كبير.

- وأما الحلول الفوقية فهي أن تتدخل عناية السماء على طريقتها مع الأمم السابقة فتهلك الظالمين وتعيد الأمور إلى نصابها.. لقد كانت الأمم الظالمة فيما مضى تهلك بالصاعقة أو المطر أو الرياح أو الصرخة أو أبابيل الطير.

- أما أمة الإسلام فليس لها إلا البذل والتضحية، وهي أمور قوامها العنصر البشري والجهد المبذول.

- حتى الحلول الفوقية في الأمم السابقة كان الله يأذن بها بعد أن يستنفد الرسل كل السبل .. فهل استنفدنا كل السبل؟

وقد تمثلت الحالتان في سيرته ﷺ صاحب الرسالة الخاتمة؛ لنفهم دور السماء في عملية التغيير:

أ- الإسراء والمعراج.. كان دور السماء كاملا في تلك الحادثة فيما يتفق مع كونها معجزة .. ولكن الحادثة برمتها لا تنتمي إلى فقه التغيير بل تتعلق بقصة التكريم لهذا النبي ﷺ وافتراض ركن الصلاة ، والتجسيد الحي لبعض المعاني والفضائل التي اشتملت عليها رسالته ﷺ كتلك المشاهد التي رآها في رحلته ﷺ وكان جبريل عليه السلام يتولى تفسيرها .

ب- الهجرة.. كان العنصر البشري هو المعول (ومن فوقه عناية الله بالطبع)، لكن ولأن الحادثة تتعلق بفقه التغيير من مبدئها إلى منتهاها فقد تم التعامل معها منذ البداية على هذا الأساس:

- التخطيط الجيد باختيار الوقت المناسب للخروج.

- وتكليف من يحمل الطعام ومن يحمل الأخبار ومرشد الرحلة.

- وعندما يستنفد الجهد البشري تتدخل عناية الله (وهي التي لم تغب لحظة واحدة) كما حدث حين أوشك أمره ﷺ على الانكشاف في الغار، وكما حدث حين أوشك سراقة أن يدركه ﷺ .

- لكن تبقى الرحلة ، بحكم انتمائها إلى فقه التغيير .. تبقى والجهد البشري هو لحمتها وسداها .

٢- الإيجابية: وهي المبادرة إلى فعل الأمور الواجبة أو المستحبة دون انتظار التكليف.

فقد ربي الإسلام أبناءه على الإيجابية مع عدم السكوت عن الحق:

- ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾[الأعراف].

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة:١٠٥] .. قرأها أبو بكر على المنبر ثم قال: إنكم

تقرأون هذه الآية وتتأولونها على غير معناها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعذاب من عنده» (رواه أبو داود والترمذي).

قوله ﷺ : «الدين النصيحة (ثلاثا). قيل: لمن؟ قال: لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم» (رواه مسلم).

قوله ﷺ : «لا يكن أحدكم إمعة؛ يقول إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم» (رواه الترمذي).

٣- استشعار المساءلة والدعوة إلى تحمل المسئولية :

– يشعر الإسلام أبناءه بأن كلا منهم أيا كان حجمه وموقعه مسئول عن آخرين «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته، والرجل راع في مال أبيه ومسئول عن رعيته، وكلكم راع ومسئول عن رعيته» (أخرجه الخمسة).

– فالإسلام يمهد لقضية التغيير بإشعار كل فرد بواجباته التى سيسأل عنها كما يسأل عن الفرائض التعبدية (ولاحظ أن الحديث كله يدور حول المال، وهو أمر دنيوي، ولم يتطرق إلى العبادة أو الجهاد لنشر الرسالة مثلا).

- فالإسلام يشعر الجميع أن هناك أهدافا عظيمة في المجتمع لا ينهض بها فرد أو أفراد بل المجتمع بأسره .

- وهو لا ينتظر حتى تقع الأخطاء حتى نغيرها بل يسعى إلى سد الذرائع وإغلاق المنافذ إلى الشرور والمنكرات وذلك عبر استشعار المساءلة والحض على القيام بها خير قيام.

٤- عرض القرآن منهج التغيير أو فقه التغيير من خلال مصطلحات خمسة : الاستخلاف، التوريث، التمكين ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التواصي بالحق:

أولا : الاستخلاف :

- ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) ﴾[الأعراف].

- ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) ﴾[النور].

- الاستخلاف مشتق من خلف، والخلافة ثلاثة أنواع (دوائر):

١ – خلافة عامة:

وهي اتخاذ الله الإنسان خليفة عنه في الأرض ليعمرها ويصلحها

ويسخرها في إطار طاعة الله عز وجل، فيعطر أجواءها بالذكر والطاعة والعبادة، وينشر في ربوعها الخير والتقوى والفضيلة ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً... ﴾[البقرة:٣٠].

٢- خلافة خاصة بمعنى الاستخلاف:

أ - وهي تمكين الله للفئة المؤمنة في الأرض ونصره وتأييده لها، حتى تعلو وتظهر على الفئة الكافرة .

ب- وهي نوع من التتويج لجهود الإصلاح والتغيير .

ج - وهي تفتح الطريق أمام الاستخلاف، بمعنى (الخلافة العامة) كي تمضي على وجهها الصحيح.

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [النور:٥٥].

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الأعراف].

٣ – خلافة سياسية:

– وهي خلافة الحكم بمعنى أن يختار المسلمون من بينهم من يقوم على حراسة الدين وتدبير أمور المعاش على سنن العدل والاستقامة.

- وهي مأخوذة من خلافة رسول الله ﷺ في هذه المهام التي كان يضطلع بها في حياته.

ثانيا: التوريث:

قال تعالى:

- ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾[الأعراف].

- ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ﴾ [الأعراف:١٣٧] .

- ويتضح من خلال الآيات أن التوريث كتتويج إلهي لجهود الإصلاح وعملية التغيير قريب من الاستخلاف .

ثالثا: التمكين:

وتعني أن يجعل الله الفئة المؤمنة هي الظاهرة ولها الغلبة والعلو على غيرها.

- ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج].

- هذا تغيير بعد التمكين يوضح كيف يصنع المؤمنون بعد تمكينهم.

- ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[النور].

- لقد ورد التمكين هنا على نحو يوحي إما بالتزامن مع الاستخلاف فهو مرادف له مثل التوريث، وإما بالاستخلاف كمشيئة إلهية أولا يعقبها التمكين بتبعاته ثانيا.

وعلى أي الأحوال:

- فالتمكين لا يكون قبل التمحيص، والتمحيص يقتضي الابتلاء. قال الشافعي رحمه الله: «لا تمكين قبل الابتلاء» .

رابعا : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

- ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة:٧١]، ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٠٤] .

- قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران:١١٠].

- والملاحظ في مصطلح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كمصطلح مرتبط بعملية التغيير .. من خلال الآيات السابقة ما يأتي:

١- عملية الإيجابية: ممثلة في الأمر بالمعروف كدعامة من دعائم التغيير هي سبب رئيس في خيرية هذه الأمة، بدليل تقديم المولى سبحانه لها في حيثيات الخيرية على الإيمان بالله، وذلك على اعتبار أن الإيمان بالله كان موجودا في الأمم السابقة أما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فمزية انفردت بها هذه الأمة.

٢- في قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران].

- يفترض أن تكون الأمة كلها قائمة بالأمر والنهي، ساعية إلى الإصلاح والتغيير .. وذلك إذا كانت (من) في قوله (منكم) للبيان لا للتبعيض.

- أو أن يقوم بالأمر والنهي والتغيير قطاع أو فصيل يكفي لإنجاز المهمة.. وذلك إذا كانت (من) للتبعيض .

٣- أن الاضطلاع بقضية التغيير من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على مستوى الجماعة المسلمة هو سبب قوي جدا بعد الإيمان بالله للرابطة والولاء بين المسلمين وذلك لقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ

﴿وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة:٧١].

٤- أن إسقاط التغيير من خلال إهمال فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد مر بالتطورات التالية:

أ - أغفل ضمن ما أغفل من حقائق هذا الدين وفرائضه في عصور الانحطاط فكان تركه سببا في الضعف.. ونتج عن ضعف الأمة تمكين عدوها منها وذلك بانهيار مناعتها الإيمانية وتمكن كل آفات الحضارة من هذا الجسد الذي كان يوما ما منيعا قويا فشاخت الأمة وهرمت ودب الضعف في أوصالها.

ب- دخل المحتل الكافر بلاد الإسلام فرفع شعار (فرق تسد)، وطبقه بنجاح كبير من خلال نجاحه في إلهاء كل قطر من أقطار المسلمين بنفسه وهمه الخاص وحسب.

ج - بعد تقسيم دولة الخلافة من خلال اتفاقات سايكس- بيكو ١٩١٦، سان ريمو ١٩٢٠، وغيرها.

د - ثم طبقه داخل كل قطر حتى صار شعار كل مسلم.. نفسي نفسي ولا شأن لي بغيري.

هـ- رحل المحتل عن بلادنا عسكريا فجاءت حركات التحرر التي بدت وبدأت وطنية ثم انتهت استبدادية قمعية شمولية، فمارست

نفس هذا المبدأ الكارثي مع شعوبها وذلك لقناعتها أن الروح الإسلامية المتوثبة ممثلة في مبدأ السعي نحو التغيير من خلال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تمثل خطورة على بقائها، وذلك لأن هذه الأنظمة لا هي تقبل النصح والتوجيه ولا هي ترضى أن تصلح نفسها بنفسها، فليس ثم إلا محاربة كل رأس تطل لأجل التغيير .

- وفي هذا الصدد أروي واقعتين توضحان كيف نجحت أنظمة العسكر في أوطاننا ربما فيما لم ينجح فيه المستعمر الدخيل وذلك في قضية سلخ الأمة وإبعادها عن مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو سر قوتها وبقائها عصية على الاختراق:

* حدثنا صديق أن ضابط أمن الدولة في مدينته أرسل في استدعاء ابنه المتدين إلى مقر أمن الدولة وبعد سيل من التخويف والتهديد قال له بالحرف الواحد: «تستطيع أن تصلي وتطلق لحيتك وتقرأ الكتب لكن إياك والتجمعات الإسلامية.. خليك في حالك».

* غداة زيارة السادات إلى القدس، وقبل توقيع معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل، قام الكاتب توفيق الحكيم يكتب في الأهرام ويطالب السادات بترك قضية فلسطين للفلسطينيين والانشغال بما يخصنا فقط... نفس الفكرة السابقة.. (خلينا في حالنا) .

وقفـة:

- إن أخطر ما في هذا المبدأ «خليك في حالك» على المستوى الفردي والجمعي ليس هدم فكرة الجماعة المسلمة فحسب، بل هي دعوة صريحة لترك الفساد والمفسدين في حالهم دون تعكير صفو حياتهم .

- مع أن عناء النبي ﷺ وصحبه وعذابات السنين الطوال لم تكن لقاء دين يقبع في محرابه وإنما كانت لقاء دين حيوي يأبى إلا أن يضبط حركة الحياة والتاريخ بمنهجه ورؤيته ويهيمن عليها ويوجهها ويسعى جاهدا لإصلاح المفسدين.

❊ ❊ ❊

كيف تتم عملية التغيير؟

- في عالم الرياضة يكون الفوز إما بالضربة القاضية أو بالنقاط:

أولا: الضربة القاضية: ونعني بها ثورة أو انقلابا.

- وهذه لا يرى فيها كثير من رواد الإصلاح والتغيير - وأولهم حسن البنا - خيرا. (رسالة المؤتمر الخامس).

- غير أنه يقرر أن استمرار الأوضاع في البلاد (وقتها) دون إصلاح وتغيير من شأنه أن ينتهي إلى ثورة ليست من صنع الإخوان.

- وفي هذا المضمار قامت حركة ٢٣ يوليو، والتي تسمت فيما بعد باسم الثورة، فاكتفى الإخوان بمساعدتها والتعاون معها في الأهداف الوطنية المشتركة، مثل حراسة المنشآت الحيوية في طريق القاهرة السويس ليلة ٢٣ يوليو، ثم صاروا بعد ذلك أكبر ضحاياها .

- والمتأمل في تاريخ الثورات يلاحظ ما يلي:

١ - أكثر هذه الثورات مضارها كانت أكثر من نفعها:

- لكثرة ما يراق فيها من دماء الأبرياء..

- ولأن أغلبها يقوم على أجندات مغايرة لمصالح شعوبها، وذلك على مستوى الحقيقة لا على مستوى الأهداف المعلنة.

- ولأن ولاءها يئول أولا أو في نهاية المطاف إلى غير شعوبها وثقافتها.

- بعضها كان يبدى أول الأمر انعطافا نحو الإسلام؛ ليفيد من رصيد الخبرة والشعبية الواسعة للحركات الإسلامية ثم ينقلب عليها بعد ذلك.

٢- أنها تقفز على سنن الحياة الاجتماعية والتدرج الطبيعي فيحدث ما يشبه الصدمات الاجتماعية بعيدة المدى .

مثال: القرارات الاشتراكية ١٩٦٢ في مصر فيما يتعلق بالعقارات والأطيان.. وما تبع ذلك من انخفاض شديد في القيم الإيجارية وتأبيد عقود الإيجار، مما أثر على حركة العقارات لأكثر من ثلاثين عاما، حيث أحجم الناس عن التأجير، فاشتعلت أزمة المساكن في القاهرة والمدن الكبرى، كما تأثرت عملية التنمية في المجال الزراعي بسبب الانخفاض الحاد في القيمة الإيجارية مع تأبيد العقود للمستأجرين، بحيث أن مالك الأرض لا يستطيع أن يستردها إلا إذا تنازل عن نصفها، فعزف الناس عن الاستثمار في هذا المجال وكان لذلك آثاره الخطيرة على الاقتصاد في مصر.

٣- أن ثقافات القائمين على هذه الحركات كانت غالبا مستمدة من المشروع الحضاري الغربي أكثر مما هي مستمدة من ثقافات شعوبها.

٤- أنها تبنت سياسات فرض الأمر الواقع في تعاملها مع الآخرين بحيث جعلت من هذه السياسات حدودا للمشروعية بذاتها.

مثال: صرح السيد حسين الشافعي النائب الأسبق لرئيس الجمهورية، وأحد رموز حركة ٢٣ يوليو، في قناة الجزيرة عندما سأله المحاور عن مدى المبرر للعنف المفرط والقسوة التي اتبعتها ثورة ٢٣ يوليو مع خصومها ومخالفيها في الرأي وموقف ذلك كله في ميزان القانون والحلال والحرام .

فكان الجواب كما يلي:

- إنهم لم ينظروا للأمور بهذا الشكل ولكنهم نظروا إليها باعتبارها ثورة وتيارا وكل من يقف أمامه فلا يلومن إلا نفسه إذا وجد هذا العنف وتلك القسوة.

القوى المعادية ودورها في الثورات التي قامت في العالم الإسلامي:

- تعتبر المخابرات الأمريكية صاحبة الولاية على أغلب الانقلابات التي حدثت في المنطقة، بدءا من انقلاب حسني الزعيم في سوريا ومرورا بحركة أو انقلاب ٢٣ يوليو بمصر (راجع لعبة الأمم لمايلز كوبلاند ـ لعبة الأمم وعبد الناصر لحسن التهامي).

- من النماذج التي تظهر البصمات والتوجه الأمريكي في التدخل انقلاب سنة ١٩٥٨ بلبنان، حيث كان يرأسها كميل شمعون الذي لم

يكن ولاؤه الأمريكي محل شك.. لكن تيار الغضب الشعبي ضد سياساته كان عاليا، فاضطرت أمريكا إلى الترتيب والإعداد لخلعه والإتيان بفؤاد شهاب الدين.

- **فحققت أمريكا بذلك الفوائد الآتية:**

١- الشعور العام بالارتياح بعد تفريغ ضغط الغضب الشعبي ضده..

- وبديهي أن القادم لو كان مثله أو أسوأ فإن الرأي العام (الذي تختلف ثقافته وفهمه عن النخب وهي أقل حجما وتأثيرا) لن ينتبه لهذا قبل مرور وقت يكون فيه الوافد الجديد قد وطد دعائم حكمه.

٢- تفويت الفرص على التيارات الشعبية وبخاصة الإسلامية من أن تقوم هي بحركة تطيح بهذا العتل؛ لتأتي بآخر لا يستطيعون التفاهم معه.

٣- لاشك أن الدول الاستعمارية تفيد من تجاربها وتتعلم من أخطائها في هذا الشأن.

- هناك واقعتان من التاريخ الاستعماري في بلادنا ربما ساهمتا في توليد نظرية الإجهاض المبكر للثورات الشعبية وفكرة الضربات الاستباقية في العقلية الأمريكية:

- **الواقعة الأولى:** سنة ١٩٤٣ في لبنان حيث أجريت انتخابات رئاسية في لبنان قبل رحيل المحتل الفرنسى كانت طلائعها ونتائجها الأولى تبشر بفوز الشيخ محمد الخازن أحد علماء السنة.. فلم يكن بد من دخول الدبابات لحسم المسألة.

- **الواقعة الثانية:** في نفس التوقيت تقريبا سنة ١٩٤٤ في مصر حين قرر حسن البنا أن يرشح نفسه في مجلس النواب عن دائرة الإسماعيلية.. تلك المدينة التي كانت تعشق رجلا اسمه حسن البنا.. وقد حسمها الإنجليز بدخول الدبابات كما فعل الفرنسيون.

- من هنا ربما تعلم الأمريكيون أن الإجهاض المبكر أفضل.. ولا ينفي هذا لجوءهم أحيانا للطرق الأخرى .

ثانيا: التغيير بطريقة النقاط : وذلك بإحدى وسيلتين:

أ- وصول الفئة التي تحمل قيم وثقافات التغيير إلى مواقع التنفيذ بالكثافة اللازمة لإحداث التغيير.. وذلك عبر مسارات التدرج الاجتماعي والتطور الزمني الطبيعي.. وهذا هو المعول الأكبر في التغيير .

ب- اتساع رقعة المؤمنين بقيم وثقافات التغيير؛ لتشمل عناصر هي بالفعل في مواقع التنفيذ .. وهذا لا يعول عليه كثيرا في عالم اليوم لندرته .

- لأن حركة التاريخ وسنن الحياة وطبائع النفوس لا تقوم عادة على مبدأ الطفرة.

فمن النادر أن يصل إنسان إلى ذرا المناصب العليا ويتبوأ المواقع الحساسة.. ثم هكذا وبدون إعداد مسبق أو تربية طويلة الأمد يغير قناعاته، ويغامر بفقدان كل شيء.. فيعتنق ولو سرا الفكر الإسلامي الصحيح وما يتبعه من ثقافة التغيير.

وكذلك فمن النادر أن يصل أحد العناصر التي تحمل قيم وثقافات التغيير إلى المواقع الحساسة في الدولة سرا.

الضوابط الشرعية للتغيير

أ- العمدة في ذلك هو حديث رسول الله ﷺ :

«إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون منهم وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع. قيل: أفلا نقاتلهم؟ قال: لا ما صلوا» (رواه مسلم).

فقه الحديث:

١- وسائل الإنكار ثلاث: (القلب-اللسان- اليد) وهذا معلوم ابتداء من حديث مسلم عن رسول الله ﷺ : «من رأى منكم منكرا...».

٢- يقول ﷺ: «.. فمن كره فقد برئ» والكره مسألة قلبية فهو يعني بذلك من رفضه بينه وبين نفسه (بقلبه) وذلك إما لضعفه أو جبنه أو لأنه قوي لكن حيل بينه وبين التغيير بالوسائل الأخرى كأن يكون مسجونا.. ففي جميع هذه الحالات هو لا يحسن غير أن يبغض ما يبغضه الله .

٣- هذه الشريحة التي اكتفت بالكره القلبي أو لم تحسن غيره.. هي رغم ضعفها الظاهر ذخيرة وعدة لأصحاب المشروع الإصلاحي للتغيير.

- حيث يشكل رفضهم القلبي الصامت:

أ- أرضية بعيدة المدى لعملية التغيير .

- لأن الظروف والأحوال حين تتطور إلى الأفضل على يد طلائع التغيير.. فسوف تخرج شرائح متزايدة .. في أوقات متفاوتة منهم عن صمتها لتنضم إلى مواكب التغيير.

ب- أن بعضهم قد يمد يد العون المادي أو الأدبي لموكب التغيير سرا.

ج- أن القائمين على التغيير في مأمن من أن يؤتوا من قبل هؤلاء.

٤- الملاحظ أن رسول الله ﷺ قد ذكر درجتين من درجات النجاة:

- **الأولى**: البراءة وتترتب على الكره القلبي، وهي تعدل النجاة (أو النجاح) بالحد الأدنى عند طلبة العلم؛ لقوله ﷺ: «فقد برئ» إذ لا يبرأ المرء إلا بعد أن يكون مدانا أو قريبا من الإدانة، كالطالب ينجح بالحد الأدنى.. فنقول : كان قاب قوسين أو أدني من الرسوب .

- **الثانية**: السلامة، وتعني أن يكون المرء سليما معافى غير مدان ابتداء .. ولكن ..

- الإنكار كلمة واسعة الطيف تشمل الوسائل الثلاث السابقة (القلب - اللسان-اليد) فكيف نخصصها ؟

- إن النبي ﷺ قد استبعد منها بالضرورة الإنكار القلبي، وذلك لقوله ﷺ قبلها: «فمن كره» كما استبعد منها التغيير باليد لقوله ﷺ : «... لا ما صلوا» حين سئل: أفلا نقاتلهم؟

- بذلك لا يصبح لقوله ﷺ : «ومن أنكر» بعد استبعاد الاثنتين [الأولى لكونها الحد الأدنى اللازم توافره عند كل أحد - والثانية لإظهار الصلاة وشعائر الإسلام] معنى سوى التغيير باللسان وما في حكمه ومستواه، كالكتابة للعلماء - والكتاب وأرباب الفكر والمثقفين.

٥- أن التغيير والإصلاح من خلال جماعات ذات أهداف وخطط ووسائل هى الأجدى؛ لأن الفساد والانحراف بات هو الأصل في بلاد المسلمين.

- فليس من الحكمة أن يعتمد على الطرق الفردية التقليدية وحدها.. كما كان يرى بعض السلف سكيرا في الطريق.. فينصحوه، أو يدخل أحد العلماء على حاكم أو أمير فينصحه .. إذ أن ذلك كان يجدي حين كان الأصل هو الخير والصلاح ولأن الباطل الآن يحاربنا بالطرق المنظمة لكن ذلك لا يعني سقوط هذه الطرق التقليدية والاستغناء عنها .. وكذلك ..

- فلا زالت الخطب والدروس والمحاضرات.. ولا زال المقال والرواية الطويلة.. والقصة القصيرة والقصيدة والأرجوزة .. والأغنية والمسرحية.. والمونولوج والاسكتش.. لا زال ذلك كله من أبرز وسائل التغيير عند جماعات التغيير المنظمة.

٦- يخلط الكثيرون بين حقيقتين:

أ- رفض الحديث عن مبدأ الخروج بالقوة على الحاكم الظالم ما دام لم يمنع المظاهر العامة لأسلمة الدولة وأولها شعائر الصلاة - ولعل هذا هو السر في حرص كثير من الطغاة في عالمنا العربي والإسلامى على التغطية الإعلامية لهم وهم يؤدون صلاة الجمعة أو يتحدثون في المناسبات الدينية .

ب - نصح الحاكم ودعوته والوقوف في وجه الدعوات الفاسدة.. والتصدي للظلم بكل سبيل.

فإن الإسلام الذي منع الخروج على الحاكم الظالم المحافظ على الإطار العام لأسلمة الدولة من خلال الصلاة - هذا الإسلام لم يمنع النصح له.

- وكلما كثر الأعوان وقوي النصير كان ذلك إيذانا بتقلص معسكر الظلم وتسرب أهله وانتقالهم إلى فريق الحق - أو تركه فحسب - إما رجوعا إلى الحق وإما خجلا من أهل الحق وإما يأسا من الظلم والظالمين..

- فيصير الظالم وأعوانه الأقرب لأن يكونوا هم الفئة الباغية التي تنذر بالعدول عن باطلها أو تخلع.

*** فائدة:**

- فاتخاذ الحديث أو غيره ذريعة لترك نصح الحاكم بحجة أن ذلك خروج عليه، والتشاغل عن ذلك بأمور من نوعية كم كان طول سواك النبي ﷺ ؟ أو أن يشمت العاطس أقرب الناس إليه مجلسا أم المجلس كله؟..

- كل ذلك ليس مذهبا في الفقه بقدر ما هي مؤامرة لإقرار الظالم على ظلمه مع خذلان الدعاة ورواد مشروع الإصلاح والتغيير الذين

يحتملون صنوف الأذى في سبيل الله لأجل التغيير من سجن وتشريد وتعطيل مصالح وخلافه (وهناك شبهة في طريقة النصح سنعرض لها في موضع آخر وهي مسألة الإسرار عند النصح للظالم) .

٧- إن التغيير بهذا الشكل هو أرقى صور الجهاد وأعلاها لقوله ﷺ : «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» (رواه النسائي ، ابن ماجه، البيهقي).

- وقوله ﷺ : «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام على إمام جائر فنصحه فقتله» (رواه الطبراني).

كنصح الحسن البصري للحجاج حتى كاد أن يقتله.

ونصح سعيد بن جبير حتى قتله... وغير ذلك كثير .

ونصح الهضيبي لعبد الناصر حتى فعل به وبالإخوان ما فعل.



شروط التغيير
«الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»

١- **العلم:** وأيسره العلم بأحكام القضايا محل التغيير .

٢- **الخروج من الخلاف:** فليس من الفقه ولا الحكمة أن يستفرغ مشروع التغيير وسعه ووسع أبنائه لتغيير أمور وأوضاع يسع أصحابها فيها رأي واحد من أهل العلم.

- لقول الشافعي ﷺ: «أجمع أهل العلم على أن الله لا يعذب فيما اختلف فيه العلماء».

- ولكن الذي لا بأس به بديلا عن محاولات التغيير هو الحوار العلمي بشروط:

أ- أن يكون على مستوى المتخصصين - وقد تنقل نتائجه إلى الدوائر الأوسع إن تراضوا على شيء .

ب- أن يكون الحوار هادئا - سمحا - متأدبا بأدب الإسلام دون أن يجر ذلك إلى المراء المذموم والتعصب كما ينصح الأستاذ البنا رحمه الله.

٣- **دفع المنكر بأيسر ما يندفع به .**

٤- مراعاة فقه الموازنات والأولويات :

- وهو نوع من دراسة الخطأ القائم المراد تغييره ثم موازنة ذلك بالنتائج المترتبة على التغيير فإن كانت النتائج المترتبة أسوأ من الخطأ القائم أرجئ التغيير أو اعتمد في تغييره على مبدأ التدرج .

- وفيما يلي مبحث كامل عن فقه الموازنات والأولويات.

فقه الموازنات والأولويات

- إن هذا الفقه ليس مجرد فقه يحتاجه الدعاة ورواد الإصلاح والتغيير فحسب بل..

- هو من قوانين الله تعالى وسننه الكونية في تصريف الأحداث وضبط حركة التاريخ، مثل سنن التدافع .

- **والأمثلة كثيرة على أن الموازنات والتدرج سنن كونية:**

أ- بعث عمر بن الخطاب كتابا إلى واليه على الشام (أبي عبيدة بن الجراح) أثناء قتال الروم قال فيه يحذره المعصية: «ولا تقولوا إننا نقاتل الكافرين فلن يسلطهم الله علينا.. فرب قوم سلط عليهم شر منهم» .

- وكما سبق فهذا أقرب إلى سنن التدافع .

ب- سلط الله نبوخذنصر البابلي الوثني على اليهود المؤمنين وحملة الرسالات وقتها بمعصيتهم لله، فسامهم سوء العذاب.

ج- عندما قدم السمح بن مالك الخولاني إلى الأندلس وتسلم راية الفتح والجهاد في جنوب فرنسا وإيطاليا وتخومها .. أصاب الأوروبيين منه رعب عظيم، فشكوا ذلك إلى أحد ملوكهم فكان جوابه:

ذروهم الآن لأنهم أصحاب عقيدة وحملة رسالة هي أغلى عندهم من الدنيا وما فيها.. فلن يهدأوا حتى يبلغوها؛ لذلك فإنكم لن تقدروا عليهم الآن، ولكن ذروهم حتى يقبلوا على الدنيا وتصير عندهم أغلى من رسالتهم فسوف تمكنون منهم .

- وهذه حكمة عميقة لأنها نوع من الموازنة والتدافع في حركة التاريخ .

د - حتى أهل الباطل يفقهون هذه السنة الكونية ويوظفونها لصالحهم.. وهي مراعاة فقه الموازنات والتدرج .

- عندما علم أبو سفيان (قبل إسلامه) أن الأعشى قد ركب إلى النبي ﷺ ليسلم ويلحق به.. قال قولته المشهورة: «تبا لهذا الرجل فما مدح أحدا إلا رفعه، وما هجا أحدا إلا وضعه».

- والأعشى لمن لا يعرفه هو واحد من شعراء المعلقات اشتهر (بصناجة العرب) لأن شعره يظهر فيه بوضوح أثر الموسيقى الشعرية، ومن ثم فقد كان يحلو في الغناء على ألسنة الحداة والجواري والغلمان، وفي هذا ما فيه من الشهرة لمن يهجوه أو يمدحه.

- وهو الذي امتدح واحدا من أغمار العرب اسمه المحلق الكلابي لمجرد أنه أكرمه بأن نحر له ناقته وأطعمه منها.. فامتدحه بأبيات جاء فيها:

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار في يفاع يحرق

تشب لمقرورين يصطليانها فبات على النار الندى

- فتسامع العرب به فتسابقوا إلى الزواج من بناته بعدما يئسن من الزواج، فأيسر بعد إملاق وعلا ذكره من خمول.

- لذلك فعندما علم أبو سفيان بخبر نيته الإسلام خشي على نفسه وقومه أن ينضم الأعشى إلى كتيبة شعراء الرسول ﷺ والجهاز الإعلامي للمسلمين.. فجمع مائة ناقة من قومه ثم خرج يعترض طريق الأعشى، ودار بينهما حوار طويل فحواه أن أبا سفيان لم يقدر على منعه من الإسلام دون تدرج؛ إذ لو هاجم الرجل (النبي ﷺ) هكذا رأسا فلربما ازداد الأعشى تمسكا به.

- فقد سأله: أين تريد؟ قال: إلى هذا الرجل لأتبعه.

- قال : إنه يحرم الزنا. قال: لقد تركني الزنا وما تركته (كان شيخا كبيرا).

- وأخذ يبغض إليه الإسلام والرجل يمتنع، حتى قال: إنه يحرم الخمر. قال: أما هذه فإن في النفس منها شيئا.

وعلى الفور طرق الحديد ساخنا فقال له: وإنا معه على عهد (الحديبية) لا ندري ما الله صانع فيه، فخذ هذه الإبل المائة فأصلح بها أمرك وانتظر حتى تتبدى لك الأمور.

- ولم يزل به حتى أثناه على نيته.

- فهذا نوع من التدرج الذي هو صورة من صور فقه الموازنات (لأنه لم يقدر على منعه هكذا دفعة واحدة) أحسنه الباطل لتحقيق بعض أغراضه.

هـ- منذ سنوات بعيدة أقبلت زميلة لنا ذات جمال وأدب تسألني عن زميل تقدم لخطبتها، فاضطررت لمصارحتها أنه كان يتعاطى المخدرات ويجرى عمليات الإجهاض .

- فكان عليها أن توازن بين حاجتها إلى زوج كريم تعيش في كنفه كأي فتاة، وبين زوج وحسب تعتاش معه ولو بالحرام.. فأبت الفتاة مجرد دخوله البيت حتى أبدلها الله خيرا منه.

❋ ❋ ❋

- وعلم أصول الفقه يراعى هذه الموازنات .. يتضح ذلك من خلال بعض القواعد الأصولية ..مثل:

- درء المفسدة مقدم على جلب المنفعة.

- قاعدة ارتكاب أخف الضررين.

- إذا تعارض الواجب مع المندوب قدم الواجب.

- إذا تعارض الواجب مع ما هو أوجب منه قدم الأوجب، كطاعة الوالدين مع إطلاق اللحية عند من يرى وجوبها.

- إذا تعارض الواجب الاتفاقي مع الواجب المختلف فيه، كطاعة الوالدين مع إطلاق اللحية أيضا .

* * *

أمثلة تاريخية على فقه الموازنات

١- في الصحيح عن عائشة عن رسول الله ﷺ : «لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لهدمت الكعبة وجعلتها على هيئتها الأولى» (رواه الترمذي).

فلما حكم ابن الزبير فعل ذلك.

هاهنا اعتباران:

الأول: ضرورة تغيير تتمثل في رد الكعبة إلى هيئتها الأولى .

الثاني: عاقبة التغيير المتمثلة في الفتنة المترتبة على التغيير، وهو ضرر أكبر للتعليل الذي ذكره ﷺ وهو حداثة عهد الناس بالجاهلية (قرب عهدهم بها) .

- وقد حسم النبي ﷺ ذلك كله بإرجاء التغيير.

٢- في الأدب المفرد للبخاري عن عائشة : «أن أول ما نزل من هذا الدين شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، حتى إذا قالوها نزلت الصلاة، حتى إذا ما أدوها أمروا بالصوم.. حتى نزل تحريم الخمر والزنا، ولو كان أول شيء نزل هو تحريم الخمور والزنا لقال الناس لا نتركها أبدا».

- دل الخبر على أن فقه الموازنات قد يكون من صوره التدريج .

هاهنا اعتباران:

الأول: ضرورة التغيير المتمثلة في كف الناس عن الخمر والزنا وسائر المفاسد.

الثاني: عاقبة التغيير المتمثلة في الفتنة الناجمة عن التغيير بالطريقة التي تفاداها التشريع وهي التغيير دفعة واحدة دون تدرج.

- وتتمثل هذه الفتنة في رفض الناس الامتثال وهو ضرر أكبر .

٣- يروى أن الإمام أحمد بن حنبل وصديقا له كانا يسيران في أسواق بغداد، فأبصرا رجلين يتسابان سبا منكرا، فلما هم صاحبه أن يعود لينصح لهما نهاه الإمام أحمد، فتعجب!! فقال له الإمام أحمد: امض يا أبا فلان فليس هذا كما علمت.. يقصد أنه ليس هو مجال التغيير الذي تظنه.

فهاهنا اعتباران:

الأول: وهو ضرورة التغيير المتمثلة في وقف المنكر أو السباب الفاحش.

الثاني: عاقبة التغيير المتمثلة في اتساع دائرة السباب لتشمل من يحاول الإصلاح وربما غيره.

- بعبارة أخرى ترتب ضرر أكبر؛ لكون الرجلين أحمقين أو من السوء بمكان.

٤- استئذان عمر بن الخطاب ﷺ رسول الله ﷺ في قتل ابن سلول بعد الرجوع من غزوة بني المصطلق بعد تصريحاته .

- حيث قال: «ما نحن وإياهم (المهاجرون) إلا كما قالت العرب: سمن كلبك يأكلك. وأنحى باللائمة على الأنصار؛ لأنهم وسعوهم في ديارهم وأموالهم، ثم قال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ».

- رفض رسول الله ﷺ أن يأذن لعمر بقتله وعلل ذلك بقوله:«لا تتحدث العرب أن محمدا يقتل أصحابه» .

- فهاهنا اعتباران:

الأول: وهو ضرورة التغيير المتمثلة في تنقية الصف من منافق يزرع الشك والبلبلة داخل النفوس .

الثاني: وهو عاقبة التغيير المتمثلة في الآثار المترتبة على قتل ابن سلول (الضرر الأكبر) كواحد من رموز المجتمع عند الرأي العام وشيوخ القبائل في جزيرة العرب المراقبين للمشهد العام في تلك المدينة الدولة بشريعتها الجديدة فيحجم الناس عن الدخول في الدين.

- لأن الرأي العام – ليس كالنخب والعقلاء – يرصد الظواهر ولا يعنى كثيرا بدوافعها، أو لا يستوعبها عادة .

- ونلاحظ هنا براعة النبي ﷺ السياسية المتمثلة في :

أ- الصياغة البارعة والموجزة - والمقنعة في آن واحد: «لا تتحدث العرب أن محمدا يقتل أصحابه».

- نعم فهكذا كان الرأي العام سيراها داخل وخارج المدينة.. ثم تكون النتيجة أن يفكر كل واحد ألف مرة قبل الدخول في هذا الدين.

ب- في طي كلماته ﷺ ما يفيد أنه يستحق القتل؛ لأنه لم يعلل رفضه طلب عمر بكونه لا يستحق القتل، كأن يقول مثلا: دعه يا عمر إنه مؤمن، أو إنه يحب الله ورسوله.. بل علل الرفض بالعواقب، وهذا هو فقه الموازنات في أجلى صوره.

ج- لم ينه ﷺ القصة عند هذا الحد بل صار كلما أحدث صاحبنا أمرا شكاه إلى وجوه قومه حتى صاروا هم الذين يبادرون بمعاتبته إذا أحدث أمرا.. ولعل ما فعله ﷺ بالرجل كان أبلغ من القتل الذي طالب به عمر.. وهذا ما يتضح بعد ذلك..

د- فلكي يكتمل الدرس لعمر وللمسلمين ولنا من بعدهم نراه ﷺ يداعب عمر يوما: أرأيت يا عمر لو أني أطعتك يوم أمرتني بقتله؛ لأرعدت له أنوف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته ..

- فيمتثل عمر راضيا : قد علمت أن رأي رسول الله أعظم بركة من رأيي.

٥- لما ولي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الخلافة كان من أبنائه عبد الملك، وكان نعم الرجل، فكأنه استبطأ إيقاع التغيير؛ لاعتقاده ربما أن هذا نوع من التغيير بعد التمكين فليس ثمة حاجة إلى فقه الموازنات أو التدرج وما شابه ذلك... فدار بينه وبين أبيه حوار:

- قال عبد الملك: والله يا أبت ما أبالي لو غلت بي وبك القدور في الله تعالى، فامض لما أمرك الله به.

- قال عمر : يا بني إن قومك قد أقاموا على هذا الأمر وشدوا عليه عقدة فلو ذهبت أقاتلهم على بعض ما في أيديهم لم آمن أن ينخرق فتق تسيل منه الدماء.

- فوالله لزوال أمر الدنيا أهون على أبيك من أن تسيل بسببه دماء المسلمين.

- يا بني إن الله ذم الخمر مرتين وحرمها في الثالثة، فأنا قبل أن أميت بدعة أريد أن أحيي سنة، فينفر الناس من هذه ويطمئنوا إلى تلك.اهـ.

والمتأمل للحوار الرائع بين الابن وأبيه يجد ما يلي:

أ- بين عمر واحدة من طبائع النفس البشرية كانت خافية على الابن.. ألا وهي أن النفس البشرية إذا أقامت دهرا على أوضاع

ومكتسبات فليس من اليسير أن تفرط فيها بين يوم وليلة هكذا ببساطة.. ولو لم تكن في مبدئها حقا من حقوقها .

- فالأمر يحتاج إلى تدرج؛ لأن عاقبة التغيير سوف تكون فتنة تتمثل في إراقة الدماء، وهو أمر له خطورته.

ونحب أن نوضح أن الكلام كان منصبا في أكثره على مخصصات وممتلكات أسرة الأمويين التي ورثوها عبر العقود المتتالية.

فالأمر بحاجة إلى حكمة شديدة في معالجة الأمر .

ب- تمثلت هذه الحكمة في:

التدرج الهادئ:

أنه كان يزرع فيهم قيما مثل الورع والأمانة والتعفف عن المال العام.. وذلك قبل مطالبتهم برد ما تحت أيديهم .

٦- في أوائل عقد الأربعينيات سنة ١٩٤٢، كان الأستاذ البنا رحمه الله قد عزم على الترشح لمجلس النواب المصري (وهذه المرة كانت سابقة على المرة التي تدخل فيها الإنجليز بالطريقة الفجة) عن دائرة الإسماعيلية، وكان النحاس رئيسا للحكومة ولم يكن قد سمع عن البنا ودعوة الإخوان المسلمين، ولكن الإنجليز دهاة الاستعمار الغربي كانوا يراقبون الرجل بحذر شديد وقد علموا أي صنف من الرجال هو، بعد أن حاولوا شراءه بالمال وكل المغريات ففشلوا.. فأغروا

النحاس أن يحول بين الرجل وبين الترشح بأي ثمن وحذروه سوء العاقبة.

- وأرسل الرجل في طلب الأستاذ البنا ودار بينهما حوار طويل .. أبدى النحاس خلاله اندهاشه من مدرس اللغة العربية الصغير الذي يحسب له الإنجليز كل هذه الحسابات.

- **وفي النهاية خرج البنا مقتنعا بعدة حقائق:**

أ- أن صداما سوف يحدث في حال أصر على ترشحه .

ب- أن هذا الصدام لن يكون مصريا إنجليزيا بل مصريا مصريا؛ بين الجماعة الصاعدة والحكومة بكل أدواتها يدعمها الإنجليز من طرف خفي.

ج- ومهما يكن بعد ذلك فسوف تكون احتمالات النجاح ضعيفة؛ لأن الإنجليز الذين أوعزوا للنحاس بإثنائه عن عزمه ما كانوا ليرضوا بهذا الترشح لو حدث.

د – أن البنا وهو مفاوض بارع استطاع أن يحصل على وعد من النحاس في حال عدم ترشحه بإعطاء الجماعة مزيدا من الصلاحيات والتسهيلات، وأن يسمح لها بالتمدد والانتشار في الفضاء السياسي المصري.

- وقد أثبتت الأيام حكمة الرجل وبعد نظره.

- وفهمه العميق لفقه الموازنات والأولويات .

- وقد كان هذا الاتفاق سببا في تنامي دور وقوة الجماعة وانتشارها في القطر وتغلغلها في نسيج المجتمع وخارجه.. بينما كان الإنجليز في ملهاة بحربهم مع المحور، والأحزاب في ملهاة خلافاتها الطويلة، حتى إن الجماعة قد باتت غداة انتهاء الحرب العالمية الثانية قوة لا يستهان بها في الشارع المصري - لدرجة أن بعض رؤساء الوزراء حين كان يأتيهم التكليف الملكي بتشكيل الحكومة كانوا يستشيرون الأستاذ البنا طمعا في تأييده وتأييد جماعته ذات التأثير الشعبي و النخبوي .. **ومن الأمثلة**: النقراشي وإسماعيل صدقي - بل وفي كثير من الأقطار العربية مثل: تقي الدين الصلح في لبنان، والقاضي الكبسي في اليمن.. كذلك دور الإخوان في اختيار أول أمين للجامعة العربية: عبد الرحمن باشا عزام، بما عرف عن جهاده وتاريخه وعلو همته.

- صورة معاصرة من صور الموازنات أبطالها ليسوا الرسول المعصوم ﷺ ولا أصحابه النجوم، بل رجال من هذا الزمن.

٧- في مطالع عقد التسعينيات من القرن الماضي أصدر الدكتور يوسف القرضاوي فتوى بجواز ظهور المرأة في بعض الأدوار السينمائية إذا كانت:

أ- محتشمة . ب- أمنت منها الفتنة.

- وقبل الاستطراد في فتوى د. القرضاوي نروي القصة التالية من أرشيف الإخوان، على اعتبار ما لها من علاقة بموضوع الفن أيضا:

- ذهب الأستاذ البنا يوما إلى أحد البنوك لفتح حساب أو ما شابه لأمر يتعلق بالدعوة.

- فلما دخل على مدير البنك، وكان يجلس في مواجهته (مواجهة المدير) الممثل المعروف أنور وجدي .

- فلما أبصر مدير البنك الأستاذ البنا قطع حديثه مع أنور وجدي ورحب بالأستاذ البنا وهش له قائلا: أهلا أهلا حسن بك .

- فاستدار الأستاذ أنور وجدي ليجد نفسه أمام الأستاذ، فحياه بدوره وصافح الأستاذ البنا الرجلين .

- وعلى الفور قال الأستاذ أنور للبنا: والله يا حسن بك أنا راجل مسلم وعارف ربنا لكن أنتم زمانكم بتقولوا علي كافر.

- فنفى الأستاذ أن يكفر الإخوان مسلما بأي حال.

- ثم عرج على الفن فقال لأنور وجدي: بالعكس، فالمفروض أنك تقوم من خلال الفن بتعليم الناس وتوجيههم إلى الخير والفضيلة..

فأنت لو نجحت في مهمتك أفضل منا وأقدر، ولو أحببت أن تشرفنا في المركز العام لتشرب معنا فنجان قهوة ونتحدث في ضوابط الفن الراقي فإن ذلك سيسعدنا. انتهت القصة.

- إن عمر الفن السينمائي والتمثيل عموما الآن أكثر من قرن، فمن العبث الظن أنه يمكن أن يلغى بفتوى.

- ولكننا نشجع كل من يعمل في هذا المجال أن يحسن اختيار الدور ويحسن الأداء ونبين لهم الضوابط، ولا نعسر عليهم ما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

- ثم نتوجه إلى المشاهد لنرقى بذوقه ونسمو به ونحضه على اختيار الفن الجيد ونبذ الفن الهابط الرديء؛ لأن كثيرا من الفنانين يتفقون معنا في مبادئ الفن الراقي، ولكنهم يعللون تجاوزهم أحيانا بأن هذه هي مطالب الجمهور.

- وفي هذا الشأن قصة طريفة مؤداها أن أحد علماء الأزهر الأجلاء دخل محلا للعصائر في القاهرة، فلفت نظره بعض الصور الخليعة، فلما فاتح صاحب المحل تعلل بأن الزبائن تضطره لذلك لأنها تحب هذا اللون .

- فما كان من الشيخ إلا أن خرج أمام المحل، وصار كلما أبصر أحدا يهم بدخول المحل، وخاصة النساء المحتشمات، فإنه كان يعرض عليهم وعليهن القصة ويطلب التعاون معه لتغيير هذا الوضع الشاذ من خلال أن يبدى كل من يدخل من الرجال والنساء خاصة ملاحظته على الصور.

- وكانت النتيجة أن رفعت الصور !! وانتهت القصة .

- إن نموذج السينما الإيرانية، وقد شاهدت بعض أعمالها، التي حصدت الكثير من الجوائز العالمية مثال يحتذى من حيث جودة المضمون وحسن العرض والبعد عن الابتذال والملل.

خاتمة في فقه الموازنات:

- قد لا تكون المسألة غلبة الظن باتساع المنكر بقدر ما هي رهبة الموقف أو المواجهة.

- وفي هذا يقول ﷺ : «ألا لا يمنعن رجلا خشية الناس أن يقول بحق إذا علمه فإنه لا يباعد من رزق ولا يقرب من أجل أن يقال بحق أو يذكر بعظيم» (رواه الترمذي وأحمد).

- فالضابط في حالات التغيير الفردية هو ورع الداعية مع عقله الذي يقيم ويوازن بين الأخطاء القائمة والمشاكل المحتملة.

- وقد لا تكون هناك مشاكل محتملة ولكنها كما بينت تحتاج إلى قدر من الشجاعة ورباطة الجأش مع الحكمة، **وأذكر في هذا الصدد واقعتين:**

أ - واجه ابن تيمية قازان ملك التتار الذين كانوا قد بدأوا يدخلون الإسلام دخولا مشوبا بوثنيتهم في البداية .

- واجهه ابن تيمية بالنصح وأغلظ عليه فقال: «إن جدك الكافر «هولاكو» لم يرق من الدماء مثلما أرقت مع أنك تزعم أنك مسلم ».

- فألقى الله تعالى في قلبه الهيبة من ابن تيمية وتساءل: من هذا الرجل؟! إنني لم أر أثبت منه جنانا!! فقيل له: هذا شيخ الإسلام ابن تيمية. فصنع له ولمن معه - على عادة الملوك - طعاما ثم دعاهم إليه فتقدموا ولم يتقدم ابن تيمية، فتساءل قازان عن السبب فأجابه:

- وكيف آكل وهذا مما سلبتموه من شياه الناس وأنعامهم وقد طبختموه بما قطعتموه من الأشجار؟!

- فازداد الرجل إعجابا به وقال له:ادع لي يا شيخ .

- فرفع ابن تيمية يديه يدعو وقازان يؤمن..

- وكان من دعائه : «اللهم إن كان عبدك هذا قد خرج يقاتل لتكون كلمتك هي العليا فملكه البلاد والعباد، وإن كان قد خرج يقاتل رياء وسمعة فدمره وزلزله».

- قال راوي القصة -وكان يجلس بجوار ابن تيمية- : فلملمت ثيابي مخافة أن يصيبها من دم ابن تيمية .. لأنه ظن أن صبر قازان سوف ينفد أمام جرأة ابن تيمية المتكررة ، لكن شيئا من ذلك لم يحدث، وخرج الرجل مشيعا بالحفاوة والتكريم.. غير أن أصحابه رفضوا

العودة معه من طريق واحد بعدما أوشكت رقابهم أن تطير بسببه حسب رأيهم.

- قال راوي القصة:

- «فلم يمض ابن تيمية بعيدا حتى خرج إليه جماعة من أمراء وقادة جيش قازان يتبركون به ويستفتونه في أمور دينهم.. فبعد أن كان وحده إذا به يصل إلى بيته مشيعا بالحفاوة والتكريم في ركب من أكثر من ثلاثمائة فارس وأمير..

- قال الراوي: أما نحن فلم نمض بعيدا حتى خرج علينا جماعة من اللصوص فشلحونا (جردونا من كل ما معنا)»اهـ (القصة كما وردت في كتاب ابن تيمية لأبي زهرة).

- وإذا تركنا ابن تيمية الذي لا يقدر كل أحد أن يكون مثله إلى واقعنا الذي يعج بكثير من الأخطاء التي لا تحتاج إلى أكثر من كلمة طيبة أو توجيه هادئ فندعها متذرعين بالخشية من وقوع مشاكل أو ضرر أكبر ، وأننا ربما نعمل من خلال جماعة لها خطط ووسائل تعمل على اجتثاث ظواهر الفساد من جذورها فلسنا بحاجة إلى محاولات قد لا تنجح .

ب- أذكر أنني منذ سنوات كنت أركب الحافلة (الأتوبيس) مع الوالد الكريم، وكان جهاز الفيديو يعرض فيلما عجيبا مليئا

بالإسقاطات البذيئة والتلميحات الشاذة، ومرت دقائق خلتها دهرا لثقلها ، حزمت بعدها أمري ثم استأذنت الوالد الذي حاول أن يثنيني إيثارا للسلامة، فأفهمته بأنني بهذه النصيحة أريد أن أخرج عن دائرة الشياطين الخرس وباب الساكتين عن الحق، وأنني لا أنتظر نتيجة وقد تعلمت منه أن:

على المرء أن يسعى في الخير جهده ... وليس عليه إدراك المطالب

– ثم قمت إلى السائق فكلمته كلمات قليلة احتسبتها عند الله وقد غلب على ظني أنه لا يستجيب .

– ولدهشتي سارع الرجل بالاستجابة.. ورأيت الناس يتنفسون الصعداء، وسمعت منهم كلمات الاستحسان.. وكأنهم كانوا فقط بحاجة إلى من يبادر ويزيل عنهم حاجز الرهبة والسلبية .

شبهات حول ضوابط التغيير

– هناك أمور ألحقت خطا على ضوابط (شروط) التغيير (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وهي:

١- التجسس:

– ليس شرطا .. بل لا يصح وسيلة لتحديد المنكر المراد تغييره .

أ– لقوله ﷺ : «من رأى منكم...» فلابد أن يكون المنكر ظاهرا للعيان لا يفتش عنه ولا يتوصل إليه بالوسائل المرفوضة كالتجسس .

ب- واقعة تسلق عمر الدار على قوم اتضح أنهم كانوا يشربون الخمر حيث قيل له:

- إننا ارتكبنا منكرا واحدا، وهو شرب الخمر، أما أنت فارتكبت ثلاثة: (التجسس، الدخول بغير استئذان، الترويع).. فأذعن عمر.

- استثني العلماء المعاصرون أحوالا تتواتر فيها الأنباء وتتوافر الأدلة على وجود قوم يجتمعون في الخفاء لممارسة أعمال تضر بالمجموع العام من أبناء المجتمع، مثل: (تزييف العملة، الدعارة، تهريب المخدرات، التخابر مع دول معادية).

- ففي مثل هذه الحالة تستأذن النيابة العامة في مهاجمة المكان واتخاذ اللازم بشروط:

- جدية الأدلة والتحريات.

- عدم ترويع أحد أيا كان.

- عدم التوسع في الإيقاف والاعتقال خارج دائرة الاشتباه.

- الإطلاق الفوري لسراح كل من تبرئه التحقيقات الأولى.. حتى ولو صار مطلوبا بعد ذلك على ذمة القضية.

٢- إذن ولي الأمر:

- ترى بعض الآراء الشاذة اشتراط إذن ولي الأمر لممارسة حسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- وولي الأمر هذا الذي يسعون إلى موافقته:

أ- إما قائم بالفرائض منفذ للأحكام، فمثله يحتاج إلى من يعاونه في هذا الباب، فليس ثمة مشكلة .

ب- وإما قائم على الظلم متغافل عن المنكرات فلا ينتظر من مثله الموافقة.

- غير أن الحسبة لابد لها من هيئة مستقلة عن السلطة التنفيذية تضبط عملها بضوابط الشرع وأن يحسن اختيار عناصرها وتربيتهم وتوجيههم على يد علماء أفاضل .

- حصل الأستاذ فريد عبد الخالق (٩٤سنة) أحد القيادات التاريخية للإخوان وعضو مكتب الإرشاد الأسبق للجماعة على درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة في نوفمبر ٢٠٠٩، وعنوانها: «الاحتساب على ذوي الجاه والسلطان»، وموضوعها: «حق الرعية في إبداء الرأي والنصح للقيادة السياسية، وضرورة نزول القيادة السياسية على إرادة الجماهير».

٣- الإسرار عند النصح للحاكم أو المسئول:

- المقصود: أن يسعى العالم أو الداعية لأن ينفرد بالحاكم ثم ينصحه على هذه الحالة المنفردة سرا، فإن امتثل وإلا فقد أدى ما عليه.

- المستند الشرعي (الدليل): حديث النبي ﷺ : «من أراد أن ينصح لذي سلطان فلا يبدله علانية ولكن ليأخذ بيده فيخلو به فإن قبل منه ذاك وإلا كان قد أدى الذي عليه». (رواه أحمد، وصححه الحاكم، واعترض الذهبي على تصحيحه) .

- وللدكتور المسعري (من علماء المملكة السعودية) المآخذ التالية على الإسناد، منقولة عن موقعه على الشبكة:

١- جهالة عمرو بن إسحاق بن زبريق.

٢- ضعف إسحاق بن إبراهيم بن زيريق الشديد.

٣- لين عمرو بن الحارث.

٤- لين الفضيل بن فضالة.

٥- الانقطاع بين الفضل وابن عائذ.

٦- الانقطاع بين ابن عائذ وجبير.

٧- الانقطاع بين جبير وكل من عاصم بن غنم وهشام بن حكمي.

* **خلفية:** يتبني الآن هذا الرأي بعض علماء المملكة السعودية وبعض التيارات الموجودة بمصر التي ترتبط بهم وتعتبر كثير من آرائهم الفقهية صدى لآراء هؤلاء.

الاعتراض على اشتراط الإسرار :

١ - قد تبين من عرض د. المسعري حالة الحديث وإسناده .

٢ - لا نعترض على النصح بالحسنى للحاكم، والإسرار لو أمكن، فلا نرفضه ولكن كم يتسنى للعلماء والمخلصين ورواد التغيير أن ينفردوا بهؤلاء، هذا إن أذنوا لهم بالدخول عليهم ابتداء، هؤلاء لا يسمحون لأحد أن يدخل عليهم سوى بطانتهم ومن تعداه فلابد أن يمر أمره وشأنه على أجهزة الأمن المتعددة.

- وفي النهاية لا ينفرد أحد بهم البتة.

- وكلنا يعلم ما عليه أكثرهم من الكبر وسوء الخلق والتعلل بالانشغال بمصالح الدولة وعظائم الأمور بحيث لا يسمحون لأحد بمقابلته، خاصة من العلماء والدعاة المخلصين، فضلا عن الانفراد بهم، وبالأخص إذا علموا أنهم قد قدموا عليهم لأجل النصح.

- إن فكرة الانفراد هذه تبدو الآن مستحيلة أو مضحكة، وبالتالي علينا أن نترك قضية التغيير حسب الحديث، وننشغل بأحكام الطهارة والحيض والنفاس.

- حدثنا بعض الثقات أن أحد العلماء الكبار في مجاله، وهو يساري التوجه (يعنى يتكلم فقط بالأرقام والنظريات.. فلا قال الله ولا قال الرسول) قد دعي إلى لقاء مع رئيس دولته ضمن لقائه ببعض العلماء

والمفكرين.. فطلب الإذن بالكلام، فأذن له، فانتقد بكل أدب سياسة الحكومة وجوانب معينة، واقترح على الحاكم حرصا على وقته أن يقدم له بعض أفكاره وآرائه مكتوبة في أوراق.. فإذا بالحاكم يعترض غاضبا: خلي أوراقك معك فلست بحاجة إليها وأنا أفهم أكثر منك وأنت متطرف!!

- فكأن اشتراط الإسرار بهذا الشكل تعجيز أو نسف لفكرة الإصلاح والتغيير من أساسها.

٣- إن أنظمة الحكم الحديثة تشتمل على لجان ومؤسسات ووزارات ومجالس نيابية .. ورواد التغيير يقدمون البحوث والدراسات المستفيضة التي لا تهاجم أشخاصا وإنما تنقد أوضاعا وسياسات .

٤- وحتى الرسائل والمكاتبات لا تصلح بديلا؛ لأنها لابد وأن تعرض أولا على المساعدين والأمناء.

- الذين يشفقون عادة على الحكام من قراءة ما لا يسرهم.

- أو لأنهم لا يعرضون عليهم إلا ما يستحق من وجهة نظرهم .

- أو حرصا منهم ألا تتغير الصورة أمام أعينهم عما رسموه لهم.

- روت الصحف مؤخرا أن رئيس الديوان الخاص بالحاكم في إحدى الدول العربية نبه على الحاشية قبل أحد الاجتماعات المهمة بعدم ذكر ما يغضب الحاكم.

- فإذا كان هذا هو الحال مع الحاشية والمقربين فكيف بعامة الناس؟!

٥- النماذج التاريخية كلها لسلف الأمة ، وهم أتقى لله منا وأفهم لدينه ، جاءت خلاف ذلك.

بمعنى أنها كانت على الملأ .. والأمثلة كثيرة:

أ- نصح العز ابن عبد السلام للظاهر بيبرس وإغلاظه له وإبطاله ولايته وولاية جميع المماليك حتى يعتقوا أنفسهم بمبالغ طائلة تلقاها العز نيابة عن الأمة ثم أودعت بيت مال المسلمين.. حتى عرف ببائع الأمراء .. فهل كان هذا سرا ؟

ب- مهاجمة الحسن البصري للحجاج ، وإغلاظه له أمام الناس، حتى كاد أن يقتله، لولا أن صرفه الله بقدرته.

ج- نصح أبي مسلم الخولاني لمعاوية (في خلافته) أمام الناس في المسجد بألفاظ قد نراها اليوم خشنة قاسية .

د- نصح الثوري للمنصور في مجلسه: (اتق الله فقد ملأت الأرض ظلما وجورا).

هـ- نصح الغزالي لسنقر بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي .

و- نصح ابن تيمية لقازان أمام الجميع بالألفاظ القوية التى أوردناها .. فهل يزعم أحد من هؤلاء أنه أعلم أو أتقى لله من هذا

الشيخ رحمه الله ؟ أم أن تراث ابن تيمية لا يعنى عند البعض سوى: مجموعة الفتاوى، رسالة الفرقان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن، وتحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد، ومجموعة التوحيد وما شابه؟!

ز- نصح الهضيبي لعبد الناصر في بعض الأمور، وأخطرها اتفاقية الجلاء التي أبرمها منفردا مع الإنجليز بشروط مجحفة لمصر، في وقت كان الإنجليز قد أجمعوا فيه على الرحيل نتيجة أعمال الفدائيين في قناة السويس .

ح- نصح التلمساني للسادات:

هاجم السادات التلمساني والإخوان في مجلس نقله التلفاز على الهواء بتهم من نوعية إفساد الشباب -وهم منها براء- فكان رد التلمساني: لو أن أحدا ظلمني فسوف أشكوه إليك، أما وقد ظلمتني فإنني أشكوك إلى الله. ثم حين طلب منه السادات أن يسحب شكواه أمام الله؛ لأنه حسب زعمه يخاف الله، قال له: لقد شكوتك إلى عادل ولم أشكك إلى ظالم.. لذلك فلن أسحب شكواي أمام الله، وبدلا من ذلك ابحث عن علاج للألم النفسي الذي سببته لي بهذه الاتهامات .

٦- لو كان هذا كله سرا بالله عليكم فكيف وصل إلينا؟

٧- النصح سرا في جميع الأحوال لا معنى لـه سـوى رضـا العلـماء بالمظالم والمفاسد القائمة وإقرار الظالم على ظلمه.. وهذا بلا شك يفـت في أعضاد الناس ويخذلهم ويقوي شوكة الظالم .

٨- قوله ﷺ : « أفـضل الجهـاد كلمـة حـق عنـد سـلطان جـائر» (أخرجه النسائي وابن ماجه وأحمد والبيهقي)، «وسيد الـشهداء حمـزة ورجل قام إلى إمام جائر فنصحه فقتله» (أخرجه الطبراني).

- أفادت أن الذي ينزل منزلة أفضل المجاهدين، أو أفضل الشهداء لابد أنه قد عرض نفسه للمخاطر الجمة.. فهل هذه المخاطر تختـزل في كلمات رقيقة يهمس بها واحد من أهل الحق في أذن حاكم؟!

خاتمة الباب:

- إن القوة والعزيمة في الدين عند الـبعض تعنـي تتبـع العـزائم في الأحكام الفقهية كاللحية والنقاب.

- أما مـوالاة الظـالمين مـن الحكـام الـذين يوالـون الـذين كفـروا ويعادون إخـوانهم الـذين آمنـوا، وتعطيـل أحكـام الـشريعة، وخنـق الحريات، واعتقال الشرفاء، واغتصاب الحكم رغـم إرادة الـشعوب، فكل هذا ربما كان من أمور السياسة التي لا شأن لنا بها وكأنها لا تعنينا ولا تطالنا، أو أن نصحهم يعد خروجا عليهم.

- وغاية ما سمعت من رواد هذا المبدأ: «أن افتحوا لنا قنوات مع الحكام وسوف ننصح لهم» .

- ولا أدري كيف يأذن الظالم -الذي يعلم علم اليقين أنه ظالم- للعلماء أن ينقدوه وينصحوا له؟!

التغيير بعد التمكين

- هناك تداخل وتشابه في وسائل التغيير في المرحلتين قبل وبعد التمكين .

- **فعلى سبيل المثال:** مراعاة فقه الموازنات والتدرج موجودة في المرحلتين قبل وبعد التمكين.. راجع قوله ﷺ : «لولا أن قومك حديثو عهد...» وهذا كان بعد التمكين، وقصة عمر بن عبد العزيز مع ولده... وهذا كان بعد التمكين.

- لكن تبقي هناك اعتبارات وأمور لا يمكن الخوض فيها غالبا قبل التمكين، مثل جهاد الكافرين وما يتعلق بذلك من أحكام، كوسائل لتغيير الواقع عند غير المسلمين.

- هناك حالات معاصرة، مثل جهاد الإخوان في فلسطين، القناة، أفغانستان، البلقان، .. لكنها تبقى استثناء على الأصل يسعى الكافرون والظالمون لعدم تكراره .

أما تغيير الواقع عند غير المسلمين قبل التمكين فوسائله اليوم تتمثل في:

- حسن عرض الإسلام بكل السبل المتاحة - إيفاد العلماء والدعاة - ودعم المراكز والهيئات والجاليات الإسلامية في الخارج في حل مشاكلها، ومساعدتها بكل السبل كي تتمكن من عرض الإسلام على الناس في هذه البلاد.

- الملاحظ أن في العالم الإسلامي الآن تمكينا جزئيا أو بوادر تمكين، يتمثل في عدة مظاهر:

أ- مشاركة الإسلاميين أحيانا في حكومات (وزارات) في بلاد مثل: (ماليزيا - إندونيسيا - تركيا - الأردن - السودان - الجزائر - اليمن..).

ب- مشاركة الإسلاميين في مؤسسات المجتمع المدني، مثل: المجالس النيابية – المجالس البلدية – اتحاد الطلاب - النقابات المهنية - نوادي هيئات التدريس - نوادي القضاة- مجالس إدارات المؤسسات والجمعيات الأهلية - لهذه الهيئات جميعا ميزانياتها وصلاحياتها التي يتصرف فيها الإسلاميون الذين فازوا بثقة جموع الأعضاء وأتوا إلى المجالس عبر صناديق الانتخاب .

- فهم على سبيل المثال لا يودعون أموال نقاباتهم ومجالسهم في البنوك الربوية ولكن يوظفونها على الوجه الأكثر نفعا لأصحابها والأوفق لمنظومة القيم والثقافات التي يدينون بها.

- وهم على سبيل المثال عندما ينظمون أنشطة اجتماعية وثقافية (كالرحلات- المصايف- المؤتمرات - المحاضرات- المعارض) فإنهم يديرونها وفق سنن العدل والاستقامة – وقد أثبتت هذه الأنشطة بالطرق التي تدار بها أنها حازت رضا وثقة المجموع من المنتفعين بها.

- وهذه كلها صور مجتزأة للتمكين؛ إذ أنهم يديرون هذه الهيئات والمجالس على النحو الذي يرضي ويحقق النفع للناس كما لو كانت دولا صغيرة.

ج- في العالم الإسلامي الآن نموذج لدولة إسلامية .

- وهى وإن كانت شيعية ، إلا أنها تعتز بعقيدتها ، واسمها الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

- تفرض على المجتمع الدولي احترامها.

- تجهر ويجهر حكامها بالعداء لإسرائيل وضرورة التخلص منها وعودة الحق السليب إلى أصحابه.

- تمتلك أسلحة .. وتسعى إلى امتلاك المزيد لتحمي نفسها .

- تتعرض لمؤامرات من هنا وهناك فتنجح حينا وتخفق حينا.. لكنها تبقى نموذجا يبعث على الاعتزاز والأمل في هذا الدين.

منهج الإسلام في تغيير الواقع عند غير المسلمين

- كان الفاتحون الأوائل من الصحابة والتابعين ومن بعدهم.. حين انتشروا في الأرض لنشر الرسالة التي أمروا بتبليغها لتغيير الواقع الشركي عند الأمم إلى الإسلام.

- كانوا يضعون نصب أعينهم دائما النصائح الغالية لرسول الله ﷺ والراشدين من بعده، والتي تتلخص في:

١- عرض الإسلام على هذه الأمم ودعوتهم إليه، فإن أجابوهم، وهذه هي أسمي المطالب وإلا .

٢- فهم أحرار فيما يعتقدون.. ولكن:

- عليهم أن يعترفوا بالأوضاع الجديدة وأولها أن صار للإسلام دولة ترفرف عليها راية التوحيد وأن الدولة الجديدة تبسط سلطانها وهيمنتها على الكل مسلمهم وكافرهم.

- وعلامة هذا الاعتراف مبلغ تافه يدفع كل عام اسمه الجزية، ويجوز للذميين أن يدفعوا بدلا منه الزكاة باختيارهم أسوة بالمسلمين، كما فعل بنو تغلب قبيلة (عمرو بن كلثوم) على عهد عمر رضي الله عنه، فإن

أدوها وإلا فلا معنى لرفض أداء الجزية سوى عدم الاعتراف بدولة الإسلام .. يعني العداء وإعلان الحرب ومن ثم:

٣- القتال:

جوهر نظرية الجهاد في الإسلام (حسب سيد قطب والمودودي).

- يهدف الإسلام إلى إرساء السلام في الأرض على أسس من العدالة المطلقة والخير الشامل للإنسانية كلها وإلا فالجهاد هو الداعم لتحقيق ذلك كله عبر الخطوات التالية:

أ - إسقاط الطواغيت الذين يحولون بين الناس وبين الاختيار الحر للعقيدة التي يرتضونها .

- نلاحظ أن رسول الله ﷺ بدأ بعد موسم الحج للعام السادس الهجري في إرسال الكتب والرسائل إلى ملوك الأرض وعظمائها يدعوهم إلى الإسلام، فكانت كثيرا ما ترد هذه العبارة: «أسلم تسلم، وإلا حملت وزر الأريسيين جميعا..» والأريسيون في أحد الوجوه هم الفلاحون، وفي وجه آخر هم أتباع أريوس، وهي طائفة نصرانية ظلت متمسكة بعقيدة التوحيد وأقامت تنتظر ظهور النبي الذي بشر به المسيح.

وعلى هذا الوجه فالمعنى واحد كالذي سبقه؛ لأن الملوك في هذه الحالة سيحملون أوزار هؤلاء، إذ أنهم قد حالوا بينهم وبين تعريفهم

بظهور النبي الذي ينتظرونه. ويقصد بهم الأتباع والضعفاء؛ لأن الملوك برفضهم الإسلام بمبادرة فردية منهم دون مشاورة شعوبهم، فإنهم يصادرون آراءهم ومن ثم يحرمونهم حرية الاختيار للعقيدة التي يرتضونها.

ب- فإن قبلوا الإسلام أو خلوا بين الناس وعقائدهم، يسلم من يسلم، ويكفر من يكفر، فهذا هو شأن العقلاء .

ج- فإن أحسنوا الرد وآثروا البقاء على دين آبائهم، كأغلب أهل مصر (في البداية) ومقوقسهم مع دفع الجزية (أو الزكاة)، فليس ثمة مشكلة .

د- إنما المشكلة كما أسلفنا في رفض الإسلام ثم رفض الجزية، المعنى العملي للاعتراف بسيادة الدولة، فلا يعني ذلك سوى إعلان الحرب .

فلسفة الجزية في الإسلام

للجزية ثلاثة أبعاد:

أ- بعد سياسي :

- فالجزية رغم ضآلتها (وهي أقل بكثير مما يدفعه المسلم في الزكاة، من ٣-٥ دنانير كل عام حسب القدرة كما عاهد عمر أهل إيلياء) هي الرمز العملي للاعتراف بدولة الإسلام، فإن الإسلام لم يأت إلى الدنيا

ليبقى الكفر ويسود، فيعيش المسلمون في ظله عيشة الضيق، بل جاء ليحكم ويسود ويصبغ الكون بلون الخضوع لله وحده، وليدين كل من يعيش في كنفه مسلمهم وكافرهم جميعا بالولاء له .

ب- بعد عسكري :

- نظير الدفاع عنهم وحمايتهم.

- وقد مر بنا في تاريخ الفتوحات أن الروم كانوا يغيرون على مستعمراتهم السابقة في الشام أملا في استعادتها من المسلمين..

- وأن أبا عبيدة رد الجزية إلى أهلها في أحد الأعوام (١٤ هـ)؛ لاعتقاده أنه لم يقدر على حمايتهم بالقدر الكافي، مع أنه لم يأل جهدا في هذا الشأن .

ج- بعد اجتماعي :

- لأن شيوخهم وضعفاءهم يستمتعون مثل سائر المسلمين بمظلة الضمان الاجتماعي.

- وقد مرت بنا قصة الشيخ اليهودي الذي كان يسأل الناس، وكيف وضع عمر الجزية عنه وعن أمثاله، بل وجعل له وأمثاله راتبا من بيت مال المسلمين.

ثقافة التنوع والتعددية واحترام الآخر في الإسلام

- لكي يعلم الناس أن ليس في نظرية الجهاد في الإسلام شبهة إكراه، صيغ هذا الفصل:

١- الإسلام هو الدين الوحيد الذي يشترط لاعتناقه الإيمان بالرسالات الأخرى كاليهودية والمسيحية .

- وليس ذلك في غير الإسلام .

٢- صيغت النصوص في القرآن والسنة في كثير من الأحيان على نحو يحتمل وجوها عدة وأفهاما مختلفة.. وبتعبير الأصوليين أن أكثر نصوص القرآن والسنة جاءت ظنية الدلالة .

- وذلك للتأكيد على مبدأ التعددية واحترام الآخر .

مثال قرآني:

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا ... ﴾[المائدة:٦] .

- لقد فهم كل واحد من الأئمة الكبار قوله تعالى: ﴿لَٰمَسْتُمُ﴾ فهما مختلفا:

- **أبو حنيفة** : لم يجد من السنة الصحيحة الصريحة ما يعضد أن اللمس ينتقض الوضوء فذهب إلى أنها كناية عن الجماع.

- وربما يعضد قوله أن القرآن يلجأ كثيرا إلى الكنايات اللطيفة؛ ليكني بها عن العلاقات الصريحة كقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا ﴾ .

- **الشافعي**: رأى ألا معنى للمس في لغة العرب غير مطابقة البشرة للبشرة، فقال بانتقاض الوضوء للمس بباطن اليد أو ظاهرها ولو كانت عجوزا شمطاء.

- **مالك وأحمد**: قسما الأمر إلى تباديل وتوافيق حسب لغة الرياضيات.

- أن يقصد للذة فيجدها (وهذا ينقض الوضوء).

- أن يقصدها فلا يجدها (وهذا ينقضه).

- ألا يقصد اللذة فيجدها (وهذا ينقضه).

- ألا يقصدها فلا يجدها (وهذا لا ينقضه).

مثال من السنة:

- قوله ﷺ بعد انتهاء غزوة الأحزاب: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة».

- ثم إن المسلمين استراحوا في الطريق ..

فكان المسلمون قسمين:

* قسم فهم الأمر مرتبطا بعلة التعجيل .. فلما استراحوا في الطريق صلوا.

* قسم التزم بحرفية النص فلم يصلوا إلا في بني قريظة..

وأقر النبي ﷺ هؤلاء وهؤلاء.

- ليس هذا دليلا على جواز الاختلاف في فهم النصوص فحسب، بل هو تشجيع على الاجتهاد في فهمها طالما كان هناك دليل ومستند.

- وفي المقابل على من يسلك طريقا في الفهم ألا يسفه الآخر؛ لأن النبي ﷺ لم يعب على أحد .

٣- قول عمر بن عبد العزيز : «ما أحب أن أصحاب محمد ﷺ لا يختلفون.. لأنهم لو لم يختلفوا لكانت فتنة وكان ضيقا، أما الآن فلو اتبع الناس واحدا منهم فقد اهتدى وأصاب سنة».

٤- قيامه ﷺ لجنازة اليهودي الذي مرت عليه ﷺ .. فظن الناس أنه ﷺ ربما ظن الميت مسلما فنبهوه أنه يهودي، فقال: «أليست نفسا؟ فإذا رأيتم الجنازة فقوموا» (رواه البخاري).

- مثال صادق على احترام الآخر حيا وميتا.

٥- تحريم المثلة بالموتى ولو كانوا كافرين :

- ولنقارن بين هذه الثقافة وهذا السمو والرقي، وبين الآخرين الذين يشوهون قتلانا، بل لا ينتظرون موتهم فيبادرون بقطع أعضائهم أحياء لاستخدامها في زراعة الأعضاء، كما فعلوا في العراق .

- ومثلما فعل الإنجليز بجثة المهدي في السودان حين نبشوا قبره ومثلوا بجثمانه وقطعوا رأسه سنة ١٨٩٨ ، وذلك انتقاما لقتل جوردون الذي قتل في حرب كانوا يدفعون فيها محتلا.

٦- قصة وقعت أحداثها بعد انتهاء معارك خيبر وأشلاء القتلى والجثث تملأ ساحة المعركة.. سألت امرأة يهودية عن رسول الله ﷺ ؛ لتسأله عن بعض أمورها.. فاصطحبها اثنان من الصحابة..

قبل أن أكمل أرجو أن نتأمل: اصطحبها .. فاصطحبها اثنان من الصحابة .. لم يمسسها أحد بسوء .. ولم يعتد على شرفها ولا .. ولا كما يحدث لنساء المسلمين هنا وهناك .. أوصلها الرجلان إلى رسول الله ﷺ .. وكان عليهما أن يمرا بالجثث.. فماذا حدث؟!

- ما كان من رسول الله ﷺ إلا أنه وبخهما: «أو قد نزعت الرحمة من قلبيكما ... أتجوزان (تمران) بالمرأة على مصارع قومها؟!».

- نعم.. إن هذه الجثث كانت من صنع المسلمين.. لكن ذلك حدث في معركة كان كل فريق فيها حريصا على قتل صاحبه.. فللحرب قانونها وللسلم قانونه وقد وضعت الحرب أوزارها وهذه امرأة ضعيفة.. رقيقة المشاعر، والإسلام يحرص ألا يجدد أحزانها بفقد الزوج أو الأخ أو الولد .

٧- أراد أبو جعفر المنصور أن يقي الناس شرور الاختلاف ويجمعهم على رأي واحد.

- وكان ذا علم وفقه، غير أن الخلافة شغلته فاستدعى مالكا (رحمه الله) وقال له:

- ضع لنا كتابا يجتمع عليه الناس، وجنبني فيه رخص ابن عباس وشدائد ابن عمر وغرائب ابن مسعود .

- فصنف الموطأ الذي نال إعجاب المنصور، فاستأذنه أن ينسخ منه نسخا يبعث بها إلى الأمصار (ويبدو أن مالكا لم يفهم من طلب المنصور أول الأمر أنه سيفعل ذلك) فقال مالك: أستحلفك بالله يا أمير المؤمنين لا تفعل.. فإن أصحاب رسول الله تفرقوا في الأمصار، وصار عند كل قوم علم، ولو فعلت ذلك تكون فتنة .

- وهكذا يصير الاختلاف رحمة وتوسعة، ومحاولة إلغائه ضيقا وفتنة.

٨- الدية في القتل الخطأ للمسلم مثل غير المسلم (المعاهد أو الذمي) ؛ صورة أخرى من صور احترام الآخر.

٩- شكا على بن أبي طالب في خلافته إلى القاضى شريح يهوديا سرق منه درعه، فلما طالبه القاضي بالبينة تبسم علي وقال: ليس عندي بينة .

فقال : لا أقضي لك بشيء، فانصرف.. فتبعه الرجل وأسلم بين يديه.

١٠- قصة وقعت أحداثها على عهد النبي ﷺ نزل فيها قرآن يتلى إلى يوم القيامة، فحواها أن رجلا مسلما سرق ، فلما دارت حول هذا السارق الشبهات ذهب يشكو إلى رسول الله ﷺ ظلم الناس مع أنه من بيت إسلام وصلاح.. وإنما فعلها فلان اليهودي.. فعاتب رسول الله ﷺ الذين اتهموا الرجل ظنا منه أنه صادق، فنزل قول الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [النساء].

١١- أورد الأستاذ سيد قطب في كتابه العدالة الاجتماعية في الإسلام قائمة بأسماء الموالي (يعني كانوا عبيدا) الذين تولوا الفتيا في

الأمصار، فارتقوا بالعلم والتقوى حتى صاروا منارات علم وأئمة هدى، منهم:

- يزيد بن حبيب، وهو مولى أسود من دنقلة كان بمصر زمن عمر ابن عبد العزيز.

- سالم مولى أبي حذيفة.

- نافع مولى ابن عمر.

- الحسن البصري (وهو أفضل التابعين بعد أويس القرني، لم يفضله أويس إلا بذكر النبي ﷺ خبره وتبشيره به).

- عطاء بن رباح.

- طاووس بن كيسان .

- ابن سيرين مولى أنس بن مالك.

- عبد الرحمن بن هرمز مولى أبي هريرة .

* أشاد كثير من المنصفين من مؤرخي الغرب (النصراني) واليهودي بسماحة الحضارة الإسلامية العالمية في رسالتها الأخلاقية في توجهاتها الإنسانية في نزعتها التي:

- استوعبت الآخر ممثلا في مواطنين ورعايا داخل الدولة يتمتعون بكافة الحقوق كغيرهم.

- لم تضن بعلمها على الغرب الذي كان يسبح في بحار الجهل ويخبط في ظلمات الأساطير، لا كما يفعل الغرب اليوم معنا ومع مبعوثينا.

ويكفي أن أحد مؤرخي اليهود قد شهد أن الفترة التي عاشها اليهود في أسبانيا المسلمة كانت أروع الحقب التى عاشوها.. حتى إذا ما حكم الأسبان المتعصبون وعرف التاريخ على أيديهم محاكم التفتيش هاجر كثير منهم إلى مدينة الأستانة عاصمة الإسلام القوية حتى قيلت المقولة الشهيرة: إن عمامة السلطان العثماني خير من تاج الباب الكاثوليكي.

* * *

أهل الذمة في الحضارة الإسلامية

- يقودنا الحديث عن فقه الإسلام وفلسفته في التعامل مع غير المسلمين في البلاد المفتوحة وخاصة أهل الكتاب.

- وهم الذين يسمون أهل الذمة.. يقودنا الحديث إلى هذه التسمية: أهل الذمة.

- ولمرونة الإسلام فإنه يستوعب مستجدات العصر التي لا تنبو عن حقائقه ولا تبعد عن ثوابته، ومن ذلك أن بعض أهل الذمة في الدولة الإسلامية ربما ضاقوا بمصطلح أهل الذمة مع إقرار عقلائهم بأن الإسلام قد حفظ حقوقهم على مر التاريخ .

- وقد اصطلح مؤخرا على استعمال مصطلح المواطنة للجميع، فما هي المواطنة؟

المواطنة : (هي عضوية الوطن التي يترتب عليها مقادير متساوية من الحقوق والواجبات).

- وهذا التعريف هو صياغة معاصرة لمقولة عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» .

- هذه الحقوق (أو الحريات) التي يتساوون فيها مع المسلمين لا تخرج عن أربعة:

١- حقوق سياسية: وتشمل (حق الترشح - حق الانتخاب - حق إبداء الرأي مكتوبا ومسموعا. وبالنسبة للترشح : يرى البعض أن لهم حق الترشح لجميع مناصب الدولة عدا الرئاسة، في حين يرى البعض إعطاءهم فرصا للترشح لجميع المناصب ثم تكون أصوات الناخبين هي الفيصل.

٢- حقوق دينية: وتشمل (حق اعتناق المعتقدات الدينية - حق العبادة في معابدهم وكنائسهم).

٣- حقوق مدنية : وتشمل:

أ- (حق الحياة، فحياة الذمي مصونة بنفس القدر كحياة المسلم).

ب- حق التعرض، وتشمل: المسكن ، الطعام، والملبس.

ج- سائر الحقوق المدنية، كالعلاج، التعليم ، فرص العمل الشريف.

٤- حق المساواة : قد تتوافر الحقوق الثلاثة السابقة ولكن ليس على نحو يتساوى فيه الناس؛ لذا فالمساواة حق رابع بعد الثلاثة السابقة.

التصور الإسلامي في معاملة أهل الذمة كمواطنين

تنقسم الأمور التي يأتيها أهل الذمة إلى نوعين :

١- عبادات ٢- معاملات.

١- العبادات :

- كصلاتهم وذبائحهم.. وهذه لا نعرض لهم فيها بشيء .

- إلا أن تكون هذه العبادة فسادا عاما كعجن فطيرة عيد الفصح (عند اليهود) بدم غير يهودي.

- وقد صاغ الأديب الإسلامي د. نجيب الكيلاني قصته الرائعة «حارة اليهود» من خلال وقائع وأحداث حقيقية وقعت في دمشق (القرن ١٩) إبان حكم محمد على، بينت فكرة عجن فطيرة عيد الفصح بدم رجل مسيحي يوناني كان صديقا لليهودي الذي قتله.

٢- المعاملات : وهي نوعان:

أ- غير مختلطة: يعني أطرافها جميعا أهل ذمة.

ب- مختلطة: بعض أطرافها أهل ذمة وبعضهم مسلمون.

أ- غير المختلطة :

- فلا يحد الذمي إذا شرب الخمر، وإن علم ولي الأمر، ما لم يكن مجاهرا؛ لأن مجاهرته:

- استخفاف بمشاعر المسلمين.

- تهوين أمر ارتكابها والوقوع فيها للضعفاء.

- كذا لا يحد الذمي إذا زنى بذمية، وإن علم ولي الأمر بذلك، ما لم يكن مجاهرا؛ لنفس الأسباب السابقة .

- تجرى أحوال الأنكحة والطلاق فيما بينهم دون تدخل ولي الأمر.

- أما الجنايات كالقتل والسرقة : فإن تراضوا، وإلا حكم القاضي بينهم بشريعة الإسلام.

ب- المختلطة :

- وهي المعاملات التي يكون بعض أطرافها مسلما وبعضه ذميا.

- فتجرى عليهم أحكام الشريعة؛ لأننا لم نعاهدهم على الفساد.

مثال: لو قتل مسلم ذميا فإنه يقتل وهذا لا جديد فيه، ولو قتل ذمي مسلما فإنه يقتل لأنه ما من شريعة تجيز ذلك، وحكمه حكم المسلم الذي قتل ذميا .

- لبعض الفقهاء تخريجات رائعة في هذا الشأن وهي آراء وإن كان لها مخالفوها إلا أنها تدل على سماحة الشريعة ومرونتها وثراء أحكامها.

- فقد أفتى مالك رحمه الله أن المسلم إذا زنى بذمية فإنه يحد ولا تحد هي.

- يمنعون من التظاهر بالمحرمات كبيع الخمر ولحم الخنزير .

- أما من صنع الخمر منهم في داره ليشربها فلا شيء عليه ولو علم ولي الأمر كما أسلفنا.

*** علاقتنا بهم في المناسبات :**

قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [الممتحنة].

تنقسم المناسبات إلى نوعين :

١- اجتماعية: كالموت والولادة ، والزواج والنجاح والترقية ، والنجاة من الحوادث.

- فهذه يستحب أن يهنئ بها الجار جاره أو زميله؛ لفعله ﷺ ذلك وإحسانه إلى جيرانه من اليهود .

٢- دينية: وهي نوعان:

أ- نوع يتعارض مع معتقداتنا: مثل عيد القيامة، حيث يحتفلون بقيام المسيح عليه السلام من قبره بعدما قتل بزعمهم .. لأن التهنئة تنطوي

على إقرار ضمنى بهذه النقطة الجوهرية المخالفة لشريعتنا وقرآننا وهي مسألة قتل المسيح أو صلبه فلا تهنئة .

ب- نوع لا يتعارض مع معتقداتنا مثل عيد الميلاد، حيث يحتفلـون بمولده ﷺ.. فلا بأس ولا ضير من هذه التهنئة تطييبا للنفوس.

❋ ❋ ❋

ثقافة الجهاد والشهادة
وأثرها في انتشار الإسلام وازدهار الحضارة الإسلامية

- عاش المسلمون الأوائل، وفي عصور الازدهار الانبعاث الحضاري أيام نور الدين محمود وصلاح الدين وسيف الدين قطز، وعصور الفتح العثماني، عاشوا في ظلال عقيدة الاستشهاد وحب الموت في سبيل الله ﷻ فحفظ عنهم التاريخ الأعاجيب:

- في اليرموك حيث قاتل ٣٠.٠٠٠ مسلم ٢٠٠.٠٠٠ رومي .

- وفي الأندلس .. وفي فتح القسطنطينية.

- وحطين وعين جالوت.. والبقية تأتي ..

- كل هذه الثقافة التي تدفع صاحبها لأن يبذل الحياة رخيصة وهي عند الله غالية .. ما مفرداتها.. ما مكوناتها..

- يقول الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾[آل عمران].

- فالموتى لأجل دين الله يحيون الحياة الأبدية الحقيقية عند الله عز وجل وغيرهم أموات وأن بدوا أحياء.

- كان الشافعي عالما ، زاهدا، مجاهدا، يصيب عشر رميات من عشر ولا يخطئ .

- وكان ابن المبارك كذلك عالما زاهدا مجاهدا، ومشهورة قصته مع الفضيل عابد الحرمين حين أرسل إليه رسالة يعاتبه على اشتغاله بالعبادة دون الجهاد.. **يقول في مطلعها:**

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك في العبادة تلعب

من كان يخضب خده بدموعه فنحورنا بدمائنا تتخضب

- ورسول الله ﷺ يحذر المسلمين من ترك الجهاد بقوله: «ما ترك قوم الجهاد إلا أذلهم الله» (رواه الطبراني بإسناد حسن).

- وخليفته الصديق رضي الله عنه : «لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل»..

- وفي كثير من المواضع في القرآن، يجمع الله عز وجل بين الأنبياء بكل مقاماتهم العالية ، والصديقين بإيمانهم الرائع، والطائعين لله ورسوله.. وبين الشهداء .. مثل قوله : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء] .

- والنبي ﷺ ربي أصحابه على عشق الموت في مرضاة الله .

- «والذي نفسي بيده لولا أن رجالا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله، والذي نفسي بيده لوددت أن أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل» (رواه البخاري ومسلم).

- وحديث: «للشهيد ست خصال:

- يغفر له مع أول قطرة من دمه، ويرى مقعده من الجنة ..

- يجار من عذاب القبر..

- يؤمن من الفزع الأكبر..

- يوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة فيه خير من الدنيا وما فيها..

- يزوج مائتين وسبعين من الحور العين..

- يشفع في سبعين من أهله» (رواه ابن ماجه والترمذي).

* * *

نماذج من المجاهدين
(قديما وحديثا)

١- **عمير بن الحمام** الذي كان يأكل بعض التمرات قبل بدء معركة بدر؛ ليتقوى بها.

- فسمع رسول الله ﷺ يقول : «أيما رجل يقاتلهم مقبلا غير مدبر فيموت إلا أدخله الله الجنة».

- فألقى التمرات وهو يقول : «لئن عشت حتى آكل هذه التمرات إنها لحياة طويلة».

- وكأنه حين فرح ببشارة النبي ﷺ بالجنة.. تلهف إلى الجنة وتعجلها واستبطأ لحظات الحياة ورآها ثقيلة؛ لأنها هي الحائل بينه وبين الجنة.. حتى زمن أكل الثمرات استبطأه فرماها .

٢- **أبو دجانة** الذي سمع رسول الله ﷺ قبل بدر يقول: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فسأل: وما حقه يا رسول الله ﷺ ؟ قال: أن تضرب به العدو حتى ينثني. فأخذه وربط رأسه بعصابة حمراء وكأنه يريد الموت، وأمسك السيف وراح يختال به في أرض المعركة .. فقال

رسول الله ﷺ : رحم الله أبا دجانة.. هذه مشية يبغضها الله إلا في هـذا الموضع.

٣- **قصة الأعرابي** الذي أتى إلى النبي ﷺ فآمن به واتبعه.

- فلما كانت غزاة غنم المسلمون فيها غنما وزعه رسول الله ﷺ فجعل له سهما، فقال الأعرابي: ما على هذا اتبعتك. فسأله النبي ﷺ : فعلام اتبعتني؟ قال: اتبعتك على أن أرمي بسهم ها هنا فأموت فأدخل الجنة.. فكان أن أصيب في نفس الموضع الذي أشار إليه، فلما رآه النبي ﷺ سأل: أهو هو؟! قيل: نعم. قال: صدق الله فصدقه.

٤- **قصة التابعي شقيق ابن سلمة** الذي ابتنى له على أطراف الكوفة بيتا صغيرا (كوخا) يسعه هو وفرسه وسلاحه فقط.

- فكان إذا أراد الخروج للجهاد نقضه (هدمه) وإذا عاد ابتناه من جديد، فأقام عمره على نية الجهاد والشهادة حتى لقي الله تعالى .

٥- **الشيخ محمد فرغلي** من علماء الأزهر ، ومن مؤسسي دعوة الإخوان في الإسماعيلية .

- كان مرافقا لكتائب الإخوان في فلسطين.

- ذات ليلة وصلتهم رسالة من الجيش المصري النظامي في فلسطين تطالبهم باستعادة أحد المواقع الحصينة التي سقطت في أيدي اليهود اسمه (التبة ٨٦) وذلك لأهميته الاستراتيجية..

- وكان الجيش المصري النظامي قد عجز بإمكاناته أن يستردها.

- وكانت هذه المجموعة القليلة من متطوعي الإخوان ذات تسليح خفيف لا يتعدى البنادق، وقد أوشكت ذخيرتهم على النفاد.

- وعلى الجانب الآخر كان اليهود في هذا الموقع قد حصنوه بجدران عالية مزدوجة من الخرسانة وقد ملئت الفراغات بين الطبقتين بحجارة صلبة (كالزلط).

وفي الداخل كان الوضع كالتالي:

أ- لديهم بئر للمياه العذبة.

ب- كانوا يزرعون: القمح، الشعير، الفول، العدس، البرسيم، والحنطة.

ج- كانوا يربون: البقر - الخراف- الماعز- الدجاج.

د- كان لديهم مدافع قوية وبنادق حديثة وكميات مهولة من الذخائر .

لذلك:

- فقد كان الحصار لفترات طويلة لا يجدي معهم .

- لكن الإخوان كانوا مصممين على تنفيذ المهمة أو الموت.. فماذا صنعوا؟!

- لقد طلب منهم الشيخ فرغلي ﷺ أن يحملوه عاليا فوق الأسوار إلى داخل الموقع.

- وتحت جنح الظلام.. وقت الفجر بدأ التنفيذ، وفي نفس اللحظة تسلل ﷺ إلى الموقع، وتم حسب الاتفاق إطلاق بعض الطلقات .

قصد الشيخ التبة العالية وسط الموقع فأذن لصلاة الفجر مكبرا بالأذان.

- فماذا حدث؟

- لقد ظن اليهود داخل الدشم والغرف أن هؤلاء الذين يؤذنون من داخل مواقعهم لابد وأن يكونوا قد سيطروا تماما على الوضع، والنتيجة.. ذعر وهلع.. لقد فر اليهود هاربين تاركين وراءهم كل شيء.

- لذلك فليس عجيبا أن يقال أن جهاد الإخوان في حرب فلسطين كان سببا في كثير من المحن التي تعرضوا لها، ومنها قتل مرشدهم واعتقالهم.

- بل يذهب البعض إلى أبعد من ذلك فيرون هذا الجهاد سببا في قتل بعضهم بعد ذلك على يد عبد الناصر، ومنهم هذا الشيخ الجليل الذي سيق مع من سيقوا ١٩٥٤ إلى الموت شنقا فقال مستعدا للموت: مرحبا بلقاء الله.

- أما اليهود فقد وعوا الدرس، وبذلوا المستحيل للحيلولة دون اشتراك أمثال الشيخ فرغلي في قتالهم عبر التنسيق مع الحكومات الصديقة لهم.

- ولا زالت صحيفة تايم الأمريكية وغيرها يحوي تصريحات قادة اليهود أمثال ديان وغيره.. مثل: «إننا لا نخشى الجيوش العربية مجتمعة؛ لأن حكوماتها صديقة لنا.. لكننا نخشى صنفا واحدا من المقاتلين؛ إنهم: الإخوان المسلمون» .

- وعندما سأل أحد الصحفيين ديان:

- لماذا تخافون من مقاتلي الإخوان؟

- **قال:** لأنهم يريدون الموت، ونحن نريد الحياة لنبني إسرائيل.

- وقد جربنا الاشتباك معهم فكبدونا خسائر فادحة؛ لذا فقد أمرنا جنودنا بتجنبهم قدر الإمكان وعدم الاشتباك معهم.

- إنه نفس المنطق ونفس العقلية التي جعلت قادة الدولة وعسكرييها في إسرائيل يدلون بتصريح مشابه حول العمليات الاستشهادية في الأرض المحتلة وعدم قدرتهم على السيطرة عليها في النصف الأول للتسعينيات.. وهو: «ماذا نفعل لمجانين يحرصون على الموت؟!».

- وهى نفس الكلمة الفارسية التى كانت ترددها فلول الفرس الهاربة أمام جيوش المسلمين المتعطشة للشهادة؛ كلمة: (هامندد)، وتعني: قد أقبل المجانين.

- أنه سلاح الشهادة الذي يمنح المسلمين هذه القوة وتلك الرهبة.

* * *

كيف نرفع استعداد الأمة للتضحية والجهاد؟

- كيف نرفع استعداد الأمة للجهاد والتضحية لأجل التغيير؟ :

١- نشر ثقافة الجهاد وأدبياته: نشر النصوص من آيات وأحاديث - نماذج تاريخية قديمة وحديثة - بالحض على احترام المجاهدين وتكريمهم.

٢- انتشال الأمة من وهدة الترف والاستغراق في الكماليات ؛ لأنه من العسير على من يتعلق بها أن يفكر في الموت والجهاد.

- مثل الدعوة إلي الحد من استيراد هذه الكماليات.

٣- الدعوة المتجددة للتوبة وتجديد العهد مع الله عز وجل.

٤- محاربة كل صور الفن الهابط ، وصور المجون والخلاعة، واللهو غير البريء ، وذلك بالبدائل الصالحة، حتى لا تتخدر المشاعر وتتدنى الهمم.

* * *

خاتمة

قال رسول الله ﷺ: «إذا تبايعتم بالعينة، ورضيتم بـالزرع، وتبعـتم أذناب البقر؛ أرسل الله عليكم ذلا لا يرفعه حتـى تراجعـوا إيمانكـم» (رواه أحمد ، الحاكم، أبو داود).

ويقول رسول الله ﷺ : «من غزوا فغنموا وسـلموا ورجعـوا فقـد تعجلوا ثلثي الأجر، ومن قتلوا فقد تم لهم الأجر». (رواه مسلم).

ومن كلام الأستاذ البنا في الجهاد:

- إن الأمة التي تحسن صناعة الموت وتعـرف كيـف تمـوت الموتـة الشريفة يهب الله لها الحياة العزيزة الكريمة والنعيم الخالد في الآخرة.

- وما الوهن الذي أذلنا إلا حب الدنيا وكراهية الموت.

- فأعدوا أنفسكم لعمل عظيم واحرصوا على الموت توهـب لكـم الحياة.

- واعلموا أن الموت لابد منه، وأنه لا يكون إلا مرة واحـدة، فـإن جعلتموها في سبيل الله كان ذلك ربح الدنيا وثواب الآخرة.

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة